أدونيس

ورّاق يبيع كتب النّجوم



دار الساقي

ورّاقٌ يبيع كتب النّجوم

لوحة الغلاف: أدونيس

أدونيس

وَرّاقٌ يبيع كتب النّجوم



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-015-6

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

فهرست

أغنية إلى جلجامش،
عائداً إلى أوروك ٧
نَرْدٌ أحمر ٨
خُذُوا الحكمةَ من فَم الغَيْم ١٥
وَرْدة المادّة ٢١
كونشيرتو الرّحلة إلى حلب ٢٧
الجراح وقاسيون وتسنيم ١٠٩
قمر الرقة
ينام، هذه الليلة، على مِخَدّة الفرات ١٢٨
يضع الشّعر شفتيه على ثدي بغداد ١٤٠
إذاً، أنت في القرية ١٥٧
كيس الصَّعْتر ١٦١
منديل ١٦٢

بئر ١٦٣
يقظة ١٦٤
بريد ١٦٥
مُعْجم ١٦٧
كتاب الصّيف ٢١٣
فضاء ٢٥٥
هو ٢٥٨
الهواءُ هو نفسه الأنين ٢٦١
القصيدة ٢٦٨

أغنية إلى جلجامش
عائداً إلى أوروك

جلجامش،
ماذا ستفعلُ في أوروك؟
ماذا يفعل حولك هؤلاء الرّجال؟
تائهون. يَتصبّبون دماً. سراويلُهم رصاصٌ، ووجوههم حُفَرٌ. الأرضُ حولهم مُسَوّرةٌ، والأفقُ أنبوبٌ ذَرّيّ.
ماذا ستفعل بهذا الفضاء الذي يَتَسَرْبَلُ باللّهَب؟
ماذا ستفعل بعد إنكيدو؟
هل تسمع شهيقَ الأبواب؟ هل تَرْتَطِمُ وسادتُكَ بِمِنْشَار الموت؟
في الظّلمة ظلمةٌ ثانية،
وما هذه القوّة التي لا ترى العالمَ، لكنها تقبض عليه؟

جلجامش،
لك رايةٌ هي الحرّية. نُعطي أيدينا لهذه الرَّاية، ولن نستسلم.

*

نَرْدٌ أحمر

(في الطريق إلى بنت جبيل، بعد غزو تموز ٢٠٠٦)

- ١ -

طيورٌ كثيرةٌ في رأسي. قيودٌ كثيرةٌ بين قدميّ.
تستطيع، مع ذلك أيها الوقت، أن تغسل وجهك في مائي المضطرب. هيّا، لا تتردّد.
لن أتردّد في نبشِ قلقي من مجرّاته، لكي أتسلّح وأهجم. لا أجوبة لديّ. لكن،
ما تلك الأضراس التي تطحن عظامك، أيها الوقت؟
ما هذه الأقلام التي تتّخذ من الجلد الآدمي رُقعاً تكتب عليها التاريخ؟
لماذا لا أريد أن أتّعظ حتى بأشلائي؟
لا أجوبة لديّ.
في فمي بحارٌ، وليس لي أظافر.
مع ذلك سأُغمغم:
السماءُ كلّها جيوشٌ،
وليس في حقولها غير الألغام.

- ٢ -

يكاد كل شخص في الطريق،
أن يبدو كأنه نردٌ أحمر.

- ٣ -

لا يزالُ أفق الجنوب يلبس رداء الصيف. كانت أنحاؤه تحتضن البشر وتذروهم في حركة تقودها المصادفات. مصادفات لا يخترقها حتى ضوء اليقين.

- ٤ -

الهواء، يمنح شَعره القصير لمقصّات الشّمس.

- ٥ -

الأرض، بين عينيّ، غزالةٌ شاحبة.

- ٦ -

ما الذي يتدحرج ويرجع القهقرى؟
لا الذروة ذروة، لا الهاوية هاوية.
وأين أبحث عن عكاكيز تتوكأ عليها أيامي؟

- ٧ -

كلا، ليس لديّ وقتٌ أبدّده في الكلام على الغيب.
يكفي أن أنزل في النهار كأنه سائلٌ، وكأنني مادة صلبة.

- ٨ -

سألت رفيقيّ في الطريق، فهمية شرف الدين وغسان صفيّ الدين:

- هل عليّ، إذاً، أن أعتقد كمثل غيري أنّ العروبة فرسٌ لها هيئة البُراق؟ أن البحر الأحمر عربة يركبُها نبيٌّ قائدٌ، وتجرّها يدُ الله؟ أنّ الإنسان لا عمل له إلاّ أن يقشّر بصل السماء؟

- ٩ -

ماضياً، كنت أقذف بوقتي في سلّة تظل فارغة.

حاضراً، أرميه في سلة تظل طافحة.

ولا شيء مما مضى يتآخى مع أشيائي.

وكنت قد حلمت، عبثاً، بفجر يتّسع حقاً لشمسي.

لكن، لا تزال الدقائق تلتفّ على جسدي، باردة، كمثل عباءة مليئة بالثقوب. وليس في سريري إلاّ لحاف اللغة.

- ١٠ -

بيوتٌ أُصغي إليها كأنها تغني، لكن، لا بشفاهها، ولا بأجنحتها. تغنّي بأشلائها.

- ١١ -

مرّ رجل ضائعٌ في الطريق إلى بيته.

- ١٢ -

تذكرت ضياعي الآخر، تلك الليلة،
عندما أخذتْ يدُ الليطاني تبلل ثيابَ عُشاق يسهرون مع الحرية، فيما كان المساء يمدّ لهم الأسرّة.
كنتُ كمن يُسافر في نهر جوفيٍّ من الضوء.
وكانت الأشجار من كل نوع تتأبط ذراعيّ.
غير أن جسدي كان في أوج المعنى.

- ١٣ -

في الطريق، يتحوّل الحجرُ إلى قلب، والقلبُ إلى فضاء.
كلّ شيء يرقد في رماده، إلاّ الجذر، وإلاّ جمالٌ يأنف من أن يتدثر حتى بالهباء.
وكلّ شيء يكاد أن يغيب إلاّ الذاكرة، تلك الشمس الأخرى التي يدور حولها فلك التاريخ.

- ١٤ -

تضع صور رأسها على خاصرة الشاطئ، وتمسح غبار قدميها بأهداب البحر.

- ١٥ -

لا أعرف إن كنت أسير في بنت جبيل، أم داخل لغتي، وأكاد أن أنفصل عن خطواتي.

كأنني شُبهة في عين الواقع.

الغبار كرسيٌّ، سريرٌ، كتاب.

الغبار مسحوق دبّابات وقنابل وصواريخ.

الغبار يضحك ويبكي بفم واحد في لحظة واحدة.

الزمن غبار سائح، (هل القديم هو، وحده، الحديث؟) ولكل صخرة وجه امرأة.

سلاماً، يا روح المادة.

حقاً، يمكن الضوء، أن يكون رجلاً أو امرأة.

يمكن الوردة أن تتلقفكِ، أيتها النار، كما لو أنك ماؤها الطيب.

- ١٦ -

وطنٌ كمثل كُرة في يد الليل.

- ١٧ -

ثمّة عناقيد لهب، ومجازر عالقةٌ في الهواء.

الجوُّ زفيرٌ أسود.

كأنما لا شيء يثق أنه حيٌّ إلاّ الموت.

ألكِ رأيٌ، أيتها الأنقاض، أيتها الشظايا؟

أتشَرد فيكِ - لا أرى إلاّ أسلحة تكتب الحياة، ولا تقرأ إلاّ العدمَ.

هل عليّ، إذاً، لكي أبدوَ مسالماً، ضد هذيان الليطاني ونباتاته الكريمة، أن أصلّي لصاروخٍ يشق أحشاءه؟

هل عليّ أن أكون لطيفاً، وأن ألعبَ الغولف مع جندي قاتل؟

هل عليّ أن أقول: الحربُ ملحٌ في اللغة العبرية، والملح حربٌ في اللغة العربية؟

أيّها الصفصاف الخجول، واصِلْ بكاءك وعلّمني:

الأرض كلها أسيجة وحراس -

هل أهرب، هل أواجه، هل أستسلم للقتل؟

ليس لي رايةٌ لكي أسير وراءها، أو لكي أرفرف باسمها فوق رؤوس المارَّة.

حياتي قبرٌ محفورٌ في الهواء. والشمس، هذه اللحظة، تشبه بقرة ليست حلوباً.

هل الوطن، هو كذلك، قبرٌ محفورٌ في الهواء؟

- ١٨ -

نِمالٌ إلكترونية تعشِّش في الجهات كلها.

إن شئت أن تقتلني، أعطني فرصة أخيرة لكي أرقد قليلاً في أحضان قصيدة لم تكتمل.

- ١٩ -

لم يترك بعضهم كلمة جميلة إلا وصف بها حظّي.
هكذا يسهل عليّ الآن أن أجمع الكلمات القبيحة كلّها، وأقذف بها في وجهه.
حظّي؟
قدمٌ في القيد،
وقدمٌ تقطرُ دماً.

(آب، ٢٠٠٦)

خُذُوا الحكمةَ من فَم الغَيْم

مرّةً، في بيروت،
أَسْبلَ القمَرُ شعرَهُ
ابتهاجاً بشجرة تُفاحٍ
ينام تحتها رجلٌ وامرأة.
كانت السّماء آنذاك تخلعُ ثيابَها،
وتَتصبَّب عرَقاً،

(وكنت أقرأ ما كتبه العالم الأنتروبولوجي الأميركيّ راينه بالومبيت عن أنواعٍ من القرود في سُومطرا تسمى جيبّون (Les gibbons). أمضى ستّ سنواتٍ في دراستها. في أثناء ذلك، شاهد قردةً شابّةً مات زوجها، فتركت عائلتَها، وهاجرت إلى عائلةٍ سكنت معها عدّة شهور، وتزوّجت أكثرَ من قردٍ، ثمّ رجعت إلى عائلتها الأصلية!

بقي أن أشير إلى أنّ سهيل إدريس يترجم جيبّون في المَنْهل بكلمة «شِقّ»، قائلاً: «هو جنس قرودٍ من أَشْباه الإنسان»).

*

مرةً، في بيروت
حَرقَ في بلاده غابات عذراء
(يُقالُ إنّها فريدة في العالم)
وسَمّى ذلك
انتصاراً ساحِقاً على العدوّ!

*

مرّةً في بيروت،
أخذتُ الحكمةَ مِنْ فم الغَيْم.

*

مرةً، في بيروت
عقدتُ حِلْفاً مع صَيْدلانيّ الطبيعة
لمداواة الطَّبْع،
وصَنّفنا أعشابَنا
وتَبادَلْنا أسْماءَها -
(كنت قد فرغتُ آنذاك من قراءة كتابٍ عن مرض البحر المتوسط.

في الكتاب أنَّ علوَّ المياه في هذا البحرِ ينقص، سنويّاً، متراً ونصفَ المتر! وأن العلماءَ، استناداً إلى ذلك،

يَرون أنّ هذا البحر سينضب نهائياً بعد أَلْفيْ سنة، إذا لم يعوَّض ذلك النّقْص!

سيكون المشهَدُ مُذْهلاً،

وسوف تكون الكارثةُ «طبيعةً» ثانية لا يُحيط بها الذُّهول).

*

مرّةً، في بيروت،
سافرَ في سفينةٍ،
راكباً حصاناً.

*

مرّةً، في بيروت،
فَضّلتُ يأسَ العقل الكبير
على آمالِ العقل الصّغير.

*

مرّةً، في بيروت،
قرأتُ تقريراً يقول:
«حقّقَ الذين يأكلونَ لحمَ إخوانهم
تقدماً كبيراً –
كانوا، سابقاً، يأكلونه في صحن الطّبيعة،

وهمُ، اليومَ،
يأكلونه في صحنِ الثّقافة».

(وكنتُ قد انتهيتُ من قراءة تقريرٍ آخر لمنظمة الصحّة العالمية، يقول:

«ستكون الحياة في القرن المقبل أكثر صحّةً، وأفضلَ، وأطولَ ممّا كانت في أيّ وقتٍ مضَى».

تقريرٌ متفائلٌ؟ ربّما. لكنّ الشيء الذي يؤكّده هو أنّ النموّ السّكانيّ في العالم، سيقلّ - فيكون بمعدّل ثمانية آلاف مولود في السّاعة، سنة ٢٠٢٥، مقابل تسعة آلاف ومئتي مولود في السّاعة، حاليّاً. وسوف تقلّ كذلك نسبة موت الأطفال، دون سنّ الخامسة»).

*

مرّةً، في بيروت،
خُيّل إليّ أنني أسمع صوتَ الكَرْمَةِ
يوشوشني قائلاً:
«لا أُثمِرُ،
إلاّ لكي أُسْكِر».

(وكنت أقرأُ سيرةَ نباتٍ ضدّ النّار، اسمه «كرومولاينا أودوراتا». وهو نباتٌ لا تحبّه أفريقيا المداريّة، وتأخذ عليه

قدرته على المقاومَة، وعلى التّكاثُر. وتصفه بأنّه نباتٌ غَازٍ ومُحْتلّ!

لكن، لهذا النّبات صِفات أُخرى، فهو حليف الغابات في نضالها الصّعب البطيء، ضدّ غَزْوٍ آخر تقومُ به السّباسبُ والمفازات. فهو، بفضل ورقه الكثير والرَّطْب في أثناء الفَصْل الجافّ، يَنهض ستاراً واقياً ضدّ النَار. وهو في ذلك يدعم كِفاح النّباتات الأخرى، تلك المليئة بالماء ضدّ النّار).

*

مرّةً، في بيروت،
تساءلتُ:
أليس مُضْحكاً
أَنْ نَصِف الطّبيعةَ بأنّها قديمةٌ أو حديثة؟
- (ماذا؟ هل تَضحك، أنتَ كذلك،
أيّها الشّعر؟)

*

مرّةً، في بيروت،
رأيتُ الشّعرَ:
كان حائراً، تائهاً

وَخُيّلَ إِليَّ، في تلك اللّحظة،
أَنّه كمثل نَحّاتٍ
ينقشُ أعمالَهُ
على جدران الرّيح.

وَرْدة المادّة

مرّةً، في دمشق،
لم يَبْقَ حرفٌ في الأبجدية إلاّ سَخِرَ مني،
ذلك أنّني كنتُ دائماً،
أسألُ الثورةَ عن الوقت،
واسأل عن الثورة، قتلاها.
وكان بين شفتيَّ بوقٌ يغرّد لها ولهم.

*

مرّةً، في دمشق،
ارْتطمَ جبيني ببابِ الغيب -
(كنتُ أقرأ تاريخ كوكبٍ مَنْفيٍّ، هارب. نعم بعض الكواكب، كمثل البشر، تعرِفُ الهربَ، وتعرف المنفى.

هذا الكوكبُ ضخمٌ، يتكوّنُ من الغاز، و«يعيش» في مَنْفى، بعيداً عن منظومته الكوكبية. وليس له اسمٌ، وإنما يُعرف بهذه الحروف TMR-IC. وهو أول كوكبٍ، خارج المنظومة الشمسية، يُشاهَدُ مباشرةً بفضل آلة تصوير للأشعة تحت الحمراء في التلّسكوب الفضائي هُوبْل Huble. وقد

اكتُشفَ مُصادفةً، بينما كان بعض علماء الفلك الأميركيين يدرسون صوراً للكواكب الفتيّة في مجموعةِ النجوم التي تُحيط بكاهلِ الثَّوْر!

لاحظوا على صورةٍ لكوكبين متجاورين نقطةً مضيئةً، أقلَّ إضاءة بعشرة آلاف مرّة من شمسنا، غير أنّها شاحبة بحيث لا يمكن أن تكون نجمةً عادية. إنها، إذاً، نجمةٌ خارِقة أو أعجوبة! هكذا وصفوها بأنها نموذجٌ كوكبيّ أول، بحجم جوبيتير حوالَى ثلاث مرّات، قُذفت في الفراغ الفضائي على بُعد أكثر من مِئتي مليار من الكيلومترات من هذين الكوكبين المتجاوريْن! والبرهان هو أن هنالك خيطاً من الغاز يمتدّ من الغشاء الغازيّ للنجوم حتى هذه النجمة القاتمة، كمثل الأثر الذي يَتركه سير السفينة، وهو هنا أثرُ كوكبٍ هاربٍ لكي يعيش في المنْفى، أو أثَرٌ لهربٍ - أُعجوبة!).

*

مرّةً، في دمشق،
أخذتُ عطلةً من سيّد غُباري،
لكي أتفرّغ لقراءة الوَساوسِ
التي تَشغلُ الريح.

*

مرّةً، في دمشق،
نصبت فَخّاً للغيم.

*

مرّةً، في دمشق،
التقينا - الطبيعة وأنا، الآلَةُ وأنا، التاريخ وأنا،
وتبادَلْنا وثائقَ أَحْلافِنا.

*

مرّةً، في دمشق،
نام المنطق بين يديَّ،
مُتّكئاً على عُكّازٍ مكسور.
وكان الشعر يَسْهرُ، راقصاً
مع كيمياء الأشياء.

*

مرّةً، في دمشق،
مات عندنا رجلٌ، فقال أصدقاؤه:
نزلت نجمةٌ إلى قبره،
وأخذته إلى بيتها.

*

مرّةً، في دمشق،
صرختُ: أيّها العقل،
لماذا أُخِذْتَ بثيابِ الكواكبِ،
ونسيتَ أَجسادهنّ؟

*

مرّةً، في دمشق،
في طفولتي - حَوّلتُ حصَى النهر في قريتنا
إلى رُفُوفٍ صغيرة
أَسْتَقْرِئُ في جَرْسِها
بُكاءَ الينابيع.

*

مرّةً، في دمشق،
قَدّمتُ طَلَبَ انتسابٍ إلى رابطةِ الموج،
وَالتَمسْتُ نَوْرَساً
لكي يُعرّف بي.

*

مرّةً، في دمشق،
نظرتُ فَشُبِّهَ لي
أَنّ السّماءَ تَغْلي وتَفُورُ

وتكادُ أن تحترقَ
في مَطْبخ عُشاقِها.

*

مرّةً، في دمشق،
لكي أُحْسِنَ رؤيةَ الغيب،
لامَسْتُ وَجهَهُ
بِوَرْدةِ المادّة.

كونشيرتو
الرّحلة إلى حلب(*)

(*) النّص العربي للنّص الفرنسي الذي نُشر في كتابٍ فنّي - فوتوغرافي خاصّ عن مدينة حلب. الصور الفوتوغرافية للمصوّر كارلوس فرير Carlos Freire. والنّاشر هو «المطبعة الوطنية الفرنسية»، باريس ٢٠٠٤.

الطريق

في طريقكَ إلى حلب،
آتياً من حماةَ أو اللاذقية،
تواكبكَ الأشجارُ
تُفَّاحاً وتيناً،
زيتوناً وفستقاً.

كلّ شجرةٍ سرير.
«خذني نهاراً وتَفيَّأْني» يُتمتِمُ الظلّ.
«خذني ليلاً وَالتَحِفْ بي» تهمسُ الغصون.

ولا تَسَلْ عن تلكَ الأجساد
تحت الأغطية التّي تَلْتَفُّ بها ثمارُ الفُستق.

في الطّريق،
رأيتُ الأيّامَ تحطّ في السّهول

كأنّها أسرابُ طيورٍ تبني أعشاشَها.
ورأيت الأشجارَ كلَّها
تَنْحني لكي تُحيّيَ الأَجْنحة.

وَددتُ، أيّتها السُّهول،
لو كنتُ أستطيعُ أن أنقلَ إليكِ،
فَماً لِفَمٍ،
ماءَ التّاريخ الذي يَهدرُ في أحشائي.

وددتُ لو كنتُ أقدرُ
أن أُمْسِكَ بغصن زيتونٍ
وأتوِّجَ به رأسَ الشَّمس.

في الطّريقِ،
أصغيتُ إلى مواويلَ تتصاعَدُ من حناجر الفلاّحين،
مزيجاً من حزنٍ كأنّه الفَرحُ
ومن فَرحٍ كأنّه الحزنُ.

أَصغيتُ إلى القدود الحلبيّةِ الصوفية،

إلى الأَدوار والموشّحات،
وتنقّلتُ مِن مَقامٍ إلى مقام.

لم أكن أسمع دويّ السّيارة التي تُقِلّني، وهي تبتلِعُ
سوادَ الإسفلت. كنت غارقاً في موسيقى
تَنْتظِمُ فيها الحقول والتّلال والقُرى. أنظر حولي،
فيُخَّيلُ إليّ أنني لا أرى إلاّ أشكالَ نايٍ وعودٍ وقانونٍ،
وما يشبه الأصابع.
وَشُبّه لي أنّ الشّجرَ جَوقاتٌ ترقصُ وتغنّي.

- «كيف ستواجه، إذاً، هذه المدينة، حلب، وأعني سبعة آلافٍ من السّنين؟»
سأَلْتني، فيما أُشْرف عليها، حجارةٌ كلسيّة بيضاءُ صفراءُ سوداءُ،
في هيئة واجهاتٍ وقناطر وأعمدة، تتناثَرُ كمثل أبجديّةٍ على صَفْحةِ الأرض.

حلب: أسماء كثيرة لحجارةٍ واحدة، -
أَرمانُ، كما يقول رقيمٌ من ايبلا.

حَلْبا، كما يقول رقيمٌ من ماري.
بيرّوا، مسقط رأسه - عنيتُ والدَ
الإسكندر المقدونيّ، فيما يُروى.

قلتُ في نفسي:

كما استأذنَ المُعَلّمَ أرسطوطاليسَ تلميذهُ الاسكندر المقدوني للبقاء فيها حتّى يَشْفى، سأتعلّم كيف أدخل إليها، مِن بعضِ أبنائها الذين ارتفعوا بها ورفعوها مِن عكَرِ الواقع إلى صَفاء الرّمز: (المتنبي، الفارابي، أبي فراس الحمداني، البحتري، الصّنوبري، المعرّي، السّهروردي).

وأضيف تمثيلاً لا حصراً مار أفرام، سامي الشّوا، فرنسيس المرّاش، الكواكبي، عمر أبا ريشة، أورخان ميسّر، علي الناصر وفاتح المدرس، مكتفياً هكذا بالإشارة إلى الأسماء التي سبقتنا إلى مملكة الغيب.

هكذا هَيْمَنَ عليَّ ضوءُ التاريخ،
وكدت أن أَنسى أنَّ للتاريخ كذلك هَباءً يُعْمي.
وذكَّرتني الكتابة:

لا تهبط في الشّيء،
إلاّ عِبْرَ هبوطكَ في نفسك،

هل سأنبش المدينة، إذاً، وأقولُها كأنّني أنبش جسدي
وأقولُه؟

حَقاً،
ليست تُفّاحة آدم وحواء، هي وحدَها، سريرَ الغواية،
إنّ لِلتاريخ هو كذلك تُفّاحته الخاصّة.

الحَمّام

للشقّة التي نُمتُ فيها، للمرة الأولى، في «بيت وكيل»، أحد البيوت الجميلة القديمة، حَمَّامٌ يفترشهُ رخامٌ بلونٍ بنيٍّ فاتح، ويتصدّره حوضٌ للوضوء، أو ربّما لغاياتٍ أخرى، منحوتٌ من حجر بلونٍ بنّي فاتح كذلك، حوضٌ - جرنٌ كحرفِ النّون مُقَرَّنٌ من الجهات الأربع.

يفصل أرضيّة الحمّام عن نافذته المستطيلة سَطحٌ - مِصطبةٌ أكثر علوّاً من عتبة الدّخول إليه، طويلٌ يتّسع لجسمين.

وعندما نزلَ عليَّ الماءُ من الصّنبور العالي، شهقتُ كمثل طفلٍ، وأخذتْ تتراءى لي في الرّخام صورٌ متنوّعة، بينها غزال نافر، امرأةٌ ورجل في عناقٍ، رجلٌ حزين، امرأة شاردة، هلالٌ، شجرة...

كان ذلك عشيّة وصولي إلى حلب بعد غياب طويل. وكانت هذه العشيّة بمثابةِ فاتحةٍ للأيام التي أمضيتها في هذه المدينة التي تتلألأ كخاتَمٍ في يَدِ الوقت.

المكان

- ١ -

تنهض حلب في منطقةٍ شبه صحراويّة بين البحر المتوسّط، ونهر الفرات. تفصلها عن الأول مسافة مئة كيلو متر، وعن الثاني المسافة نفسها تقريباً، خمسٌ وتسعون كيلو متراً.

كأنّها سُرّةٌ تجعل من غربها وشرقها جسماً واحداً، يعيش في مناخٍ جافٍّ، تتأرجح درجاتُ حرارتِه بين الثامنة تحت الصّفر شتاءً، والأربعين صيفاً.

يقترن بهذا المناخ الجغرافيّ مناخٌ ثقافيّ - حضاري. فهي تتكوّن من عالمين: شرقيٍّ قديم بأسواقه وخاناته وأسواره، بكنائسه وجوامعه، بحمّاماته ومدارسه، بحدائقه ومقابره،

وحديثٍ متحرك بِمُقابَساته الغربيّة المتنوّعةِ في الصّناعة والتجارة والزّراعة، وفي الحوارِ والتّفاعل واللّغات.

- ٢ -

بَقِيَتْ حتى بداية القرن الخامس عشر منطوية كوردة تكاد أن تَتَفَتَّح داخل أسوارها وأحيائها، بشوارعها الصغيرة المتعرّجة، كأنّها نغمات هندسية في خطوط متوازية أو متقاطعة، وبيوتها المفتوحة في اتجاه أحشائها،

حيث يزدهر اللّيمون والنّارنج، الياسمين والفلّ.

وبدءاً من هذا القرن بدأت تتوسّع، متفتّحة

إلى الخارج، في اتجاهين:

شمالاً، ببيوتها الجديدة (حيّ الجديدة) حيث يقيم

التّجار والميسورون، بعامة، وحيث تظهر البيوت بأشكالٍ خاصّة - بواجهاتٍ حجريّة، تزيّنها الألوان والزّخارف.

وشرْقاً، بأحيائها الأقلّ يُسْراً (باب النّيرب، الكلاسة) حيث يسكن غالباً العمّال وأبناء الرّيف الذين يعملون في الزّراعة والمهن الملحقة بها.

هكذا تتداخل وتتمازج ثقافتُها الحديثة في الصناعة والتجارة بثقافتها القديمة في الأسوار والأسواق والخانات والكنائس والجوامع والحمّامات والمدارس.

وللعناصر الهندسية في معمارها القديم تشكلات

وزخارف يعتمد الحسُّ الهندسيّ في معمارها الحديث على بعضها، ونوّع عليه، بخاصّةٍ، في الواجهات الحجريّة المتعدّدة الألوان، والتي تُعدُّ سمة أساسيّة تتفرّد بها البيوتُ الحديثة في المدينة، وإن كانت بيوتٌ كثيرة في مختلف المناطق السّورية أخذت تقلّدها في السنّوات الأخيرة.

إلى ذلك تبدو أسواقُها القديمة والحديثة كمثل مجموعة من الآنية المستطرقة تتنافَرُ وتتداخل. وتبدو الجوامع، على نحو خاصّ، كمثل صور فنيّة، إلى جانب كونها أمكنةً للعبادة. وهي صورٌ تُرى وتُقرأ، وتُعاشُ.

فالفنّ هنا في تجريده الرّفيع، امتدادٌ للحياة العمليّة اليوميّة، ووجهٌ آخرُ للعمل والفكر. وكثيراً ما يتفوّق، هنا، عمل اليد على عمل اللغة.

وفي هذه الأسواق المتداخلة والمتنافرة، تتداخلُ وتتنافَرُ في تركيب غنيّ، وتمازجٍ خصب، أقوامٌ وأجناس، أديانٌ ولغاتٌ وثقافاتٌ.

تَذْيِيلٌ

بين الفرات الذي تحتضن الصّحراء ماءهُ
ممزوجاً برحيق السّماء،
والبحر المتوسّط الذي يفتح صدره
للفضاء منسوجاً بالشُّهب التي تسبح
في مدارات حلب،
لا يُخطئ الترحّل مواعيده:
في دفتره أرقامٌ وإشاراتٌ تحفظ السرّ،
وعلى امتداد الأفق
أشجارٌ تلوّح،
تلالٌ وأودية
تكسوها نباتاتٌ وأعشابٌ وأزاهيرُ
لا تاريخ لها غير أن تستقبل وتودّع.
كأنّ للمدينة في جسد الأرض ثديَيْن لا ينضبان،
وكأنّ الرّضاعَ موسِمٌ دائم.

أوركسترا

من الجهة الشرقيّة،
تُشرف القلعةُ على المدينة.
تُطِلُّ عليها شَمساً ثانيةً من التراب والحجر،
من الفنّ والبهاء.
غير أنّها شمسٌ تحوّلت، مراراً، في أزمنة الغَزو
إلى كوكبٍ هائلٍ من النّار
تتفجّر منه براكينُ الدّفاع والمقاومة والبطولة.
قلعةٌ كمثل أوركسترا لم تتوقّف عن العزف، طولَ
تاريخها،
طوراً تعزفُ العملَ والفنّ
وطوراً تعزفُ الخرابَ والقَتْل.
وظلّت دائماً كمثل سريرٍ للزمن،
حيث تعشق، وتحلم، وتحبّ
حيث تتعثّر، وتتمزّق، وتشقى،
بِهاجِسٍ واحد:
أن تظلّ باباً مُشْرَعاً على الرّجاء والحبّ والمستقبل.

القلعة

- ١ -

القلعة -

تدخل إليها عابراً الجسرَ الذي يوصلك إلى بابها الرّئيس.

ترى إلى يمينكَ بابَ الحيّات. ترى على سطح قوسه حيّتين تتعانقان، وترى إلى الجسد يلتفّ بالجسد: جسدان ينتهي كلٌّ منهما برأس تنّين مجنّح، - رأسٍ في الأسفل، وآخر في الأعلى.

الجسد التنّين، الجسد الأفعواني الملتفّ: جسدٌ هَيْمَنَ بوصفه وحدةً رمزيّة وتشكيليّة، على تزيين الواجهات في المباني الحلبيّة، في القرون الوسطى. من حلب، انتقل إلى دمشق، وإلى بلدان الأناضول. وسُمّي، معماريّاً، بـ «العقدة السّوريّة» في فنّ الزخرفة.

الجسد - التّنين لغة أسطوريّة، ومادّةٌ لقراءة الفلك، أو للتّنجيم، كمثل سُلَّمٍ على باب الغيب. وهو في الوقت نفسه، رمزٌ للنّصر.

هذا الجسد - التنين يوّحد، بوصفه كذلك، وعبر الرؤية الفنيّة بين الأديان نفسها، حيث تتعانق معابدُ الأديان التوحيديّة في هيكل الفنّ.

لكنّ لا بُدّ من التساؤل، بوصفه تشكيلاً زخرفياً،

أهو مجرّد طلَّسْمٍ يمنع الشرّ من أن يقرع أبواب العمارات التي تتوّج به واجهاتها؟ أهو مجرّد رمزٍ طوطميّ ينحدر من الشامانيّة - من سِحرها وأسراره؟ أهو مجرّد خيط سحريّ نصعد عليه إلى فلك البروج؟ أهو مجرّد نذير لمن يحاول أن يعتدي، أو يغزو؟ وما العلاقة هنا بين ثقافة الوثن، وثقافة الإلّه الواحد؟

في دهليز الدخول، بعد أن تعبرَ بابَ الحيّات، يواجهكَ تمثالان - أسدان متقابلان. تفصلُ بينهما، أي تصل بينهما، نخلةٌ لعلّها ترمز إلى الحياة.

وفي طريقكَ إلى سطح القلعة، ترى نقشَيْن نافرين، لِنصْفَي أسدين، يبدو أحدهما أنّه يضحك، ويبدو الآخر كأنه يبكي. أهما، معاً، رمز للوعد والوعيد، لِلثَواب والعقاب، للحياة والموت، موحّدَيْن في نَقْشٍ واحد؟

- ٢ -

ذكّرتني القلعةُ بعلوّها المنخفض المتواصل مع المدينة بعلوّ الأكروبول وانخفاضه في أثينا.

كانت في البداية، مكاناً للعبادة، وقد وجد المنقّبون فيها معبداً خفيّاً يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

وجدوا كذلك معبدين رومانيَّيْن، حُوِّلا في العهد البيزنطي إلى كنيستين، وفي العهد الإسلامي حُوّلت الكنيستان إلى مسجدين. كأنّ المكانَ المشرفَ العالي هو الأكثر قُرباً إلى الله في أعاليه.

القلعةُ كذلك حصنٌ منيعٌ للدفاع. حصنٌ لم يُخترق إلاّ مرّةً واحدة. وقد اخْتُرِقَ غَدْراً. فُتحتْ أبوابُ القلعة لهولاكو بعد أن أعطى حاميتَها عهداً وثيقاً بأنّه لن يمسّهم بأيّ سوء. غير أنه نكث عهدَه، وقتلهم جميعاً.

للنقوش الكتابية فيها أهمّيةٌ تاريخيّة خاصّة، فهي توضح المراحل التي مرّت فيها. وقد اجتمع الباحثون على أنّ عدد هذه النقّوش خمسة وخمسون. وهي قسمان: الأول يوضح فترات التّحصين والترميم وعدده ستة وثلاثون نقشاً. والثاني عامٌّ ومتنوّع وعدده تسعة عشر.

يعود أقدم النقوش إلى السنة ١٠٧٢ (٤٦٥ هـ) ويحمل اسم نور الدّين زنكي.

ويعود أحدثها إلى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) ويشير إلى تجديد المقام السفلي لإبراهيم الخليل.

وتتضمن هذه النّقوش كثيراً من الآيات القرآنيّة.

- ٣ -

زرتُ القلعة مرّتين: الأولى برفقة رئيس جمعية العاديات في حلب محمد قجّة. وكانت زيارةً عامّة لم أتوقّف فيها إلاّ عند معالمها الأكثر أهميّة.

وفي الثانية، كنتُ وحيداً، وآثرتُ أن أراها بتفاصيلها، مستفيداً من تخطيطٍ مُفصّل في كتاب الأستاذ المهندس عبد اللّه حجّار عن حلب (معالم حلب الأثريّة، ١٩٩٧).

هكذا سلكتُ، بعد رؤية أبوابها، ممرّاً أساسيّاً داخليّاً يتّجه من الجنوب إلى الشمال. رأيت إلى يسار الممرّ بيوتاً. ورأيت حمّاماً وبئراً. ورأيتُ مسجداً يقال له مسجد إبراهيم الخليل. وهو قائمٌ على أنقاض كنيسة، ربّما كانت قائمة هي كذلك على أنقاض معبدٍ وثنيّ. ويُروى أنّه كان لهذا المسجد محرابٌ خشبيٌّ رفيعُ الصُّنع، فُقد في السّنة ١٩٢٢. وكانت الحامية الفرنسية آنذاك هي التي تحرس القلعة.

ونرى في ساحة هذا المسجد ثلاثة صهاريج لحفظ الماء، وشجرتَي فستق، وشجرتَي زيتون. ونرى في متابعة

السّير شمالاً، الجامع الكبير بمئذنته الأيوبيّة المربّعة الشّكل، وعدداً من الغرف في ساحته، لا تزال قابلةً للسّكن.

إلى يمين الممرّ، نجد، بعد أن نسير على درج يصل إلى مفترق، بئراً تُسّمى السّاطورة، وبناءً يُسمّى القصر السّلطاني، وقاعةً كبيرة تحت الأرض تُسمى «حبس الدّم». وكانت هذه القاعة، أساساً، عبارة عن مجموعة من الصّهاريج بُنيت، كما يُروى، في زمن جوستينيان. ويقال إنّ السّجين كان يُطرَحُ فيها ويُترك إلى أن يموت.

وقد استُخدمت هذه القاعةُ نفسُها سجناً لبعض أمراء الفرنجة، يذكر الأستاذ حجّار بعضهم: جوسلان(١) كونت الرُّها، وقد مات فيه. ورينو دوشاتيون(٢) الذي كان أمير الكَرك، وقد قتله صلاح الدّين الأيوبيّ، بعد أن أمضى فيه ستّة عشرَ عاماً.

نرى كذلك أنقاضَ المعبد الحثي. وقد وُجد فيه، عند اكتشافه، في سنة ١٩٣٦، لوحٌ من الحجر البازلتي نُقش عليه قُرْصانِ يمثّلان الشّمس والقمر، يحيط بهما شخصان مجنّحان كمثل ملاكَيْن.

---

(١) Jocelin

(٢) Renaud de Châtillon

- ٤ -

في السير شرقاً وجنوباً داخل القلعة، نرى الثكنة التي بناها إبراهيم باشا في السنة **١٨٣٤**. وقد حُوّلت بعضُ قاعاتها إلى مُتحفٍ صغير يضمّ بعض السّهام والآنية الزّجاجية تعود إلى عصورٍ إسلاميّة مختلفة، إضافةً إلى مخطّط مجسّم للقلعة، ونموذجٍ للمنجنيق الذي كان يُستعمل في القرون الوسطى، وإلى كتاباتٍ عربيّة متنوّعة.

- ٥ -

نرى إلى جانب الثكنة بئراً عميقة، يُنزل إليها على درج دائريّ يتألف، وفقاً لإحصاء الأستاذ حجّار نفسه، من مئتين وخمسٍ وعشرين درجة لم أهبطها طبعاً، وينتهي بثلاث فتحات توصل إلى خارج القلعة، وإلى البرج الدفاعيّ الشماليّ، خارج الأسوار.

ونرى إلى جنوبي الثكنة قاعة كبرى يُنزل إليها على درجٍ يتألف من سبعين درجة، يوصل إلى قاعة مقسّمة بثلاث قناطر كبرى، تنهض على ركائز مربّعة الشكل. ويبدو أنّها كانت صهريجاً للماء في زمن البيزنطيين حوّلها المسلمون إلى مخزن للحبوب. وتقومُ إلى جنوبي المدرّج الذي بُني في وسط القلعة، بقايا القصر الأيّوبي: حوضٌ للماء مُثمّن

الشكل، وإيوانٌ كبيرٌ، ومجرى للماء تحيط به غرفُ السّكن، وناووسٌ بيزنطيٌّ يزيّنه صليبٌ نُقشت عليه كتابةٌ يونانيّة تقول إنّ هذا الناووس تقدمةٌ من أختٍ إلى أخيها.

نرى كذلك حمّاماً مُلحقاً بالقصر، رُصِفتْ أرضُه بأحجارٍ بيض وسود.

- ٦ -

تنهض قاعةُ العرش فوق المدخل الرّئيسِ للقلعة. أمامها شمالاً، ساحةٌ للحرس، مستطيلة الشّكل، زُيّنت جدرانُها بنقوشٍ هندسيّة. ويتكوّنُ مدخلُها من أحجارٍ ملوّنة سود وصُفْر وبيض. وتعلو المدخل مُقرنصاتٌ عديدة جميلة.

وقد بدأ بناء القاعة الأمير جكم الذي بُنيَ باسمه برجان خارج أسوار القلعة. وأُعيد مؤخراً بناء سقفها، وتمّ تزيينُه بزخارف خشبيّة تعود إلى القرن الثامن عشر أُخذت، كما يقول المؤلف، من دار العائدي في دمشق.

وقد زُيّنت واجهةُ القلعة من الخارج بزخارف هندسيّة ونقوش كتابيّة بينهما نقشان مربّعان بالخطّ الكوفي، أحدهما: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، والثّاني مركّبٌ من اسم «علي»، مكرّراً أربع مرّات، بشكل هندسيّ. بينها

كذلك نقشٌ في شكل نجمة سُداسيّة يُحيط بها نقشٌ زخرفيّ لهذه العبارة: «قل كلٌّ يعمل على شاكلته».

ويقال إنّ القلعة استُخدمت للسكن، منذ أيّام سيف الدّولة الحمدانيّ. ويذكر المؤرخون أسماء بعض دُورها: دار العواميد، دار الذّهب، دار الشخوص، دار العزّ.

حرصتُ على سرْد هذه التفاصيل لتأكيد أمرين:

الأوّل أنّ القلعة كانت مَدينةً صغيرةً داخل مَدينة حلب.

والثّاني هو أنها النموذجُ الأكثر بروزاً وتميّزاً لفنّ بناء القلاع في التاريخ العربيّ - الإسلاميّ.

- ٧ -

القلعة، -

تدخل إليها كما تدخل إلى عملٍ فنيّ كبير،
أزمنةٌ داخل الزّمن،
طبقاتٌ من الإشارات والتّلويحات والدّلالات.

الحاضرُ فيها بيتٌ للتاريخ،
والتاريخ رئةٌ ثانيةٌ في جسم الحاضر،
تأخذك سنفونيّة الرّؤية، وتتكيّف خطواتك مع إيقاعاتها.

تشعر أنّ تنقّلك فيها، بين الأثر والأثر،
كمثل تنقّلك في قراءة عمل فنيّ،
وكما يتجدّد العمل الفنّي في قراءته، تتجدّد القلعة
في تنقّلك بين أنحائها. وترى، أينما توجّهت، أسراراً تنبثق
من تحت جِلْدةِ التّراب. ويتأكد لك أنّ في هذه القلعة،
قلاعاً أخرى من الأحلام والخيبات والانتصارات،
وأنّ فيها، فيما وراء العمران والخراب، ضوءاً يتخطّى
الأنقاضَ
ويبدّد ظلمات الزّمن.

- ٨ -

الأسوار، الخانات، الجوامع، الأضرحة، المدارس،
الحمّامات، الرّواق، القبّة، الباحة، - هذه كلّها تتلألأ في
نشيد تكويني يحلو لي، وأستسمح المهندسين، أن أسمّيه
بـ «نشيد الحجر».

الحجر الحلبيّ الملوّن بتنويع أخّاذ، كمثل كائنٍ حيّ.
أو هو كمثل القَلْب الذي يقبل جميعَ الصُّور، وفقاً لتعبير
شيخنا الكبير ابن عربي. فهو يُستخدم تبعاً لشكله ولونه،
ويسْتقبل النقش والزخرفة بأنواعها جميعاً. كأن هذا الحجرَ
حقّاً نشيدُ تكوين.

كلسيٌّ من أصلٍ رسوبيّ. قاسٍ لكن برفْقٍ، إذ لا يحتاج مَنْ يعالجه إلى أدواتٍ حادّة أو قاسية. صُلْبٌ، مقاومٌ، منيعٌ، يُصَانُ بنفسه لنفسه داخلَ نفسه. ديمومةٌ كما لو أنّه صِنْوُ الأبديّة.

بعضه بلونٍ أسود، للزّينة في شتّى أنواعها. وبعضه منذورٌ ليتحوّل إلى رخام. وبعضه بلونٍ أصفر كأنه الأخُ الواقِفُ لِلْوَرْسِ الذي يتحرّك متمايلاً كمثل سائلٍ بلون الذَّهب.

يُسمّي العُمّال الذين يعالجون الحجر عملهم باسم جميلٍ هو «قدُّ الحجر»، ويعنون تشذيبه ونحته، تيمّناً بالخالق الذي نَحتَ قَدَّ الإنسان.

بعد قَدّه، تُضبط أضلاعُه، وهذا ما يُسمّيه أهل الصّنعة بـ «التّربيع»: تُرْسَمُ الخطوطُ المستقيمة، تُضْبَطُ الزّوايا، ثُمّ تُزال الأطرافُ الزّائدة.

بعد ذلك، يُنْحَتُ وجهُه الخارجيّ، ثمّ يُنَعَّمُ حَتّى يصبحَ أملسَ، أو قد يُسْلم وجهه للمسِ خشنٍ، ونتوءات كما تقتضي الغايَةُ من التجلّي، أو بحسب استخدامه في الزّخارف أو النّقوش أو القناطر.

وينقسم الحجرُ الحلبيّ، بعد قَدّه إلى ثلاثة أنواعٍ:

الخاميّ، ويُستخدم دون تربيع.

والمربّع الأضلاع، ويُدقُّ وجهه جزئيّاً،

والمربّع الأضلاع تربيعاً دقيقاً، ويُنحت وجهه بأشكالٍ عديدة تصل إلى ثمانية.

كأنّ الحجر وحدةٌ لونيّة في الرسم الهندسيّ الذي هو المَبْنَى.

- ٩ -

المُقَرْنَصات - عناصر تكوينية وتزيينية، ظهرت في حلب، في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. ومن حلب، انتقلت إلى القاهرة في العهد الأيوبيّ.

هذه العناصر خطوط ومربّعات ومثلّثات ومستطيلات، ومثمّنات، ودوائر، إضافة إلى جميع ما يمكن تشكيلُه، هندسيّاً وأرابسكيّاً. وعلى هيئة كلّ عُنْصرٍ يُنْحَتُ الحجر، تبعاً للغرض منه.

هناك أيضاً الأشكال التي تحاكي أوراقَ النباتات، كمثل ورق الكرمة، وَورقِ النّخل وغيرهما.

وللزخارف والنّقوش خصائص يمكن حصرها في خمس:

أ - الأشكال التزيينية القائمة على محاكاة أوراق الشجر، والأغصان، والزهور، وبعض النباتات. وقد ظهرت هذه الأشكال أوّلاً في المسجد الأقصى في القدس، وبعد ذلك في الجامع الأمويّ في دمشق، وهي نفسها الأشكال التي أطلق عليها الباحثون الغربيون اسم «الأرابيسك».

ب - الأشكال الهندسية الخاصة، وتتكوّن من خطوطٍ تتقاطع، وتتشابك، وتتماثل بوحداتها، أو تتباين وتتعدّد.

ج - الخطّ العربيّ مكتوباً بِطرق مختلفة، وعلى الأغلب، بالطّريقة الكوفيّة، لأنّها أكثر طواعَيّة للزخرفة، وأغنى. ومعظم هذه الزّخارف الكتابيّة يتمحور عل كتابة الآيات القرآنيّة، أو تواريخ مُعيّنَة، أو أسماء خاصّة.

يحملُ الخطُّ الكوفيّ في ذاته عناصر تَزْيينيّة. لهذا توسّع فيه الخطّاطون المزخرفون، ونوّعوا فيه - بين البسيط، والمورّق، والمضفّر.

د - الأشكال الملوّنة المؤلّفة من أحجارٍ بألوان مختلفة: الأبيض، الأصفر، الزّهريّ، الأسود، الأخضر. وقد تعدّدت هذه الأشكال وتنوّعت في استقامة خطوطها،

أو تقاطعها، أو تلاقيها، أو بدوائرها، وأشكالها الهندسيّة الأخرى. وقد اختصّت هذه الأشكال بتزيين المداخل والأقواس والنوافذ.

هـ - في العهود السّلجوقيّة والزنكيّة والأيوبيّة التي استمرت حوالَى مئة عام، أُضيفت إلى النّقوش والزّخارف عناصرُ جديدة زادتها غِنًى وتنوّعاً. بينها، على سبيل المثال، الأزهار الصغيرة في نهايات الأحرف الكوفيّة، وبينها استخدام خطّ الثّلث اللّيّن، حيث تضاف إلى حروفه وريقات وتفريعات، تضفي عليه هيئةً نباتيّة.

بينها كذلك الأشرطة الحجرية المتعدّدة الألوان، سوداء وبيضاء وزهريّة وخضراء تتوّج بها المحاريب أو المداخل أو الأبْهاء.

وبينها الدوائر المتداخلة التي تحيط بالعقود فوق الفتحات، إضافةً إلى مربّعاتٍ ومثلّثاتٍ.

وقد تكون مئذنةُ الجامع الكبير أفضل مثالٍ على النّقش والزخرفة في هذه الفترة. تحيط بهذه المئذنة أربعة أشرطةٍ كتابيّة، لكلّ منها شكل زُنّار، كُتبت عليه معلومات عن باني المئذنة، تحيط بها كذلك أفاريز حجريّة.

وفي الواجهة الغربيّة لجامع الشعيبيّة زخارف ونقوش كتابيّة ونباتيّة، استُعملَ فيها الخطّ الكوفيّ بطريقة جديدة: حُلِّي بزخارف نباتيّة مفصولة عن جسم الحرف، ونُوّعت فيها أشكال الحروف.

- ١٠ - فردوس الغيب

زاويةٌ، مثلّثٌ، خَطٌّ دائريّ، خَطٌّ مستقيمٌ: جسَدٌ آخَرٌ، واليدان لغةٌ ثانية.

فنّ التشابُك فيما بين الحُروف. فنّ التَّعانق بين الكلمة والكلمة، الخطّ والخطّ.

والفكر هنا بطانَةٌ للحدْس، في مصادفات كأنّها نقشٌ في الهواء.

- ١١ -

بلى،

ثمّة لحظاتٌ يجب أن تقيم فيها قطيعةً بين باطنكَ وظاهركَ، لكي تُولدَ لحظةُ الفنّ.

يشتهي الحِسُّ أن يُصوِّر وأن يُصوَّر.

أن يرسمَ ذلك اللاّمرئي لكي يُحسن معرفة هذا المرئيّ.

يشتهي أن يرسمَ الغياب. أن يرسمَ هجرة الحاسّة عبْرَ

الزّمن في أشكالٍ، في صيغٍ، في كلمات، في عبارات.
وأن يكون اللّون بهجةً، وأن يكون أكثر من رداء.

- ١٢ -

هندسيّاً، كلُّ شيء يجري في المدينة، كما لو أنّها في عين المهندس جسمٌ يجب أن يظهر دائماً في «أحْسنِ تقويم». العمارة سماءٌ مرصّعةٌ بنجوم الخطّ واللّون. البيوت أقواسُ قُزح. جنائن تزيّن الأرض، وتجعلها لائقةً ببهاءِ الإنسان.

طقسُ الجمال هو، وحده، الذي يؤسّس للغبطة على هذه الأرض. والبيت في هذا الطقس، إنما رُفع لكي تنزل السّماءُ إلى الأرض، وتقيمَ، وترى فيها جَنّةً أخرى. تنزل السّماءُ إلى الأرض لكي تشهدَ أنّ الواقعَ يمكن أن يكون فردوسَ الغيب.

١٣ - تفاصيل

- ١ -

الكنيسة إشارة،
المسجد صوت، -
بينهما تمرّ الحياة في حلب كمثل حديقةٍ
في جزيرة الوقت.

- ٢ -

للتاريخ حروبهُ، ووراءها أنقاضٌ لا تُحصى.
غير أنّ الخسائر مهما كانت غاليةً وعالية،
لم تكن، في عصف الحياة وتحوّلاتها،
أكثر من غبارٍ يداعب كاهلَ الأرض.
تتحرّك شهوةُ الحياة وتتنفّس،
تحت الأنقاض، وفيما وراء الخسارة.
لا حاجِزٌ يقدر أن يحولَ دون شهقة الولادة.

- ٣ -

في الغسق،
عندما يغلقُ الفضاءُ أبوابَه على الوضوح،
تبدأ المدينةُ بفتح أبوابها على السرّ.
ما أسعد اللّحظات التي تتيح للغامض أن يقرأ الواضح.
أَكملِ القراءة، أيّها العابر.

- ٤ -

هنا، كان العدلُ، يسكن، غالباً، في هيئة سيف،
هناك، سهر الفكر، غالباً، في بيتٍ يشبه السّجن،
هناك وهنا، كان العقلُ يتقلّب في إنبيق الشّرع،
كمثل قَلْبٍ يُراد له أن يخفقَ وحيداً
في خوذة.
وفي الهوامش، كان الأملُ كمثل طفْلٍ يوضع، لحظة الولادة،
في صندوقٍ مُقْفَل.
اسألوا الحجر،
إنه، هو الصّامتُ، النّاطقُ الأفْصح.

لكن،
كلّ شيء في هذه المدينة
يكاد أن يكون على الرّغم من كلّ شيء،
جديراً بالحبّ.
أَغبطُ جميع أولئك الذين لا يزال الوقت أمامهم،
أما أنا فشيطاني نفسه، يكادُ أن يُشيِّخ.

- ١٤ -

الأذانُ، الوضوء:

تمهيدٌ للدخول إلى المسجد،

وفاتحةٌ للصلاة.

الأذانُ تذكيرٌ بالصّلاة ودعوة لها،

والوضوءُ للتطهّر. فالنظافةُ جزءٌ من الإيمان.

جسمٌ طاهرٌ، يقول كلاماً طاهراً، ويمارس الصّلاة

الطّاهرة في مكانٍ طاهر.

المئذنةُ صوتٌ يتجسّدُ عمودياً في شكلٍ هندسيّ. صوتٌ عموديٌ يتصاعدُ وينْبثُّ في الفضاء بامتداداتٍ أفقية، متسامياً إلى الأعالي، رمزاً للوحدانيّة وللتجرّد من الدنيا التي تتحوّل في هذا التسامي، كما يفترض، إلى مجرّد مكان للسجود، لوضع الرأس على الأرض، تواضُعاً وخشوعاً أمام اللّه الواحد الأحد. المئذنة صِلةُ وَصْلٍ بين هذا الفضاء الدّاخليّ، بِرَمْزِهِ الدّينيّ - المسجد، السّجود، والفضاء الخارجيّ، برمزه الدنيويّ، عبر صَوْتِ المؤذّن.

المئذنة صِلةٌ روحيّة - مادّية بين الأرض والسّماء. النّهاية العليا للمئذنة شُرْفةٌ تُطلّ على الجهات كلّها. يخرج

منها صوتُ المؤذّن عالقاً بين السّماء والأرض، جسراً بينهما، ونداءً لكلّ مسلم كي يضعَ هو نفسه هذا الجسر بينه وبين الخالق. أحياناً لا تعرف ما إذا كان هذا الصوتُ يصعد من الأرض أم ينزل من السّماء، أو إذا كان يصدر عنهما معاً في آن.

المئذنة، هندسيّاً، قامةٌ رشيقة عالية، تجسيداً لرمزيّة الأذان وللصّلة بين السّماء والأرض، وتلبس أجملَ «الثّياب»: لوحات تزيينيّة، مقرنصات، خيوط حجرية مبرومة، أفاريز طولانيّة الشّكل ونافرة، أقواس محدّبة ومضفورة، تشكيلات أخرى زخرفيّة متنوّعة.

لا يكتمل الكلام على الجامع بذكر المئذنة وحدها.

لا بُدّ من الكلام أيضاً على خصائص أخرى مميّزة وأهمّها القبّة والمحراب، والمنبر.

القبّة سقفٌ محدّب، أو كما يعرّفه المهندسون، «شكلٌ فراغيّ ينتج عن دوران خَطٍّ منحنٍ حول محور». وتستند القبّةُ إلى رقبةٍ دائريّة أو مضلّعة أحياناً تنقلُ ثِقْلها أو حمولتَها إلى عناصر الارتكاز، وهي إمّا أعمدة، أو أكتافٌ حجريّة. ويكون الانتقالُ من الرّقبة، بالمقرنصات، أو بالمثلّثات الكرويّة أو بالحنيّات الرّكنيّة.

وللقبّة أنواع عدّة أهمّها: القبّة الدائريّة القوسيّة، القبّة - الخيمة، القبّة البصليّة، القبّة - الخُوذَة.

والمحرابُ لفظة مأخوذةٌ من المُحارَبة، على الأرجح. ويؤوّل ذلك بعضهم بالقول «إنّ المصلّي يحارب نفسه ويحارب الشيطان»، فيما يُصلي.

ووظيفة المحراب الذي هو حنيّةٌ مجوّفةٌ على نَحوٍ خاصّ، نشر الصّوت في المسجد وتوزيعه بالشّكل الأكثر فاعليّة. وقد أدخلت إلى المحراب كذلك النّقوش والزخارف، واستُخدمت فيه أنواعٌ متعدّدةٌ من الأقواس، وأجزاء القباب، وتشكيلاتٌ متنوّعة من الحجارة البيضاء والصّفراء والسوداء والملوّنة والمرمريّة.

وهناك غير المحاريب الحجريّة، محاريب خشبيّة مصنوعةٌ ببراعةٍ فائقة، بحيث تبدو كمثل قطعٍ فنيّةٍ فريدة.

أمّا المِنْبَر فكلمةٌ مشتقّةٌ من الفعل: نبرَ، ويعني رفعَ صوتَه. وهو إذاً المكانُ الذي يعلو فيه الصّوت، أو المكانُ المرتفِعُ العالي. ويعود استخدامُه إلى بداية العهد الإسلاميّ الأوّل، وكان بسيطاً، بارتفاع قليل، وخشبيّاً. ثم تطوّر، فارتفعَ، وأُدخلت عليه الزّخارفُ والنّقوشُ النباتيّة والهندسيّة، والتشكيلات الحجريّة والمرمريّة.

وللمحراب الحلبيّ شهرةٌ عالية. فعندما احتلّ الصّليبيّون القدس، أحرقوا المسجدَ الأقصى ومنبرَه. فعمل الفنّانون الحلبيّون على صناعة منبرٍ مماثلٍ. وصُنع من السّرْو والصّنوبر، وطُعِّمَ بالعاج والآبنوس، وركِّبت القطعُ بالتعشيق والتَلْسين، ولم يُستعمل فيه أيّ مِسمار. وقد أرسله إلى المسجد الأقصى نور الدّين الزّنكي، بعد تحرير القدس.

١٥ - ثلاثة أسماء

المتنبّي، المعرّي، السّهروردي،
كواكبُ ثلاثة
عَمرَتْ سماء حلب بإشعاعها، في «غُرْبَةٍ غربيّة».

خذوا الشعر والفكر منهم، أنتم أيها المأخوذون بالمرئيّ. ارفعوهما بيتاً وأقيموا فيه. سيكون حَتْماً عليكم آنذاك أن تَنْفذوا إلى الجانب الآخر غير المرئيّ، حيث يهدر نسغ العناصر. حيث الماء والهواء، التراب والنّار ثديٌ واحد.

آنذاكَ، ربّما تعانقون الشّقاء طويلاً طويلاً.

ولن تقدر أن تؤويكم حَتى أحلامكم. لن تقدر شجيرات الفستق، بحقولها الفسيحة الوارفة، أن تظلّلكم. ولن يجديكم عبَقُ البرتقال، أو حنان الزّيتون والتّين.

هذا ما كنت أجهرُ به لفضاء المدينة، توهّماً مني أنه سيفهمني.

ولم أكن أريد منه أيّ شيء إلاّ هذا الفهم. كأنّني كنت أقول ذلك لوجه القول. ربّما لأنني كنتُ أشعرُ

آنذاك أنّ جسدي طافِحٌ بحكمة القلق والوحدة وألاّ
قُدرةَ لي، تقريباً، حَتّى على النُّطق.
كنتُ دائماً أشعر أنّ المدينة تملأ فمي بماءٍ
كلّما جَهدْتُ أن أفرغه، ملأته بماءٍ آخر -
المتنبّي، المعرّي، السّهروردي.

١٦ - قوافل

من الصّين والهند وفارس،
كانت القوافلُ، مروراً ببغداد، تجيء إلى حلب كلّ سنةٍ مرّتين أو ثلاثاً. ومن حلب، كان يتمّ توزيع ما حملته هذه القوافل في بلدان آسيا الصّغرى، وفي سورية الوُسطى والجنوبية.

وكان بين حلب وأوروبّا طريقٌ يمرّ عبر أنطاكية في الضفّة الشرقيّة من البحر المتوسّط، وعبر باري في إيطاليا، في ضفّته الغربيّة.

وفي عهد السّلطان نور الدين الزّنكي، في القرن الثاني عشر الميلادي، كان لتجّار البندقيّة وكالات تجاريّة دائمة، وشركات أوروبية مستقرّة في أنطاكية. وهكذا كانت أسواق أوروبّا تمتلئ بالمنتجات السّورية وبالبضائع الآتية من بلدان الشّرق، عبر حلب.

وبدءاً من أوائل القرن الثالث عشر، عقدت معاهدات تجاريّة مع تجّار البندقيّة، ومع أمراء تبريز، ومع سلاجقة قونية، وفي عام ١٢٠٧ عقدت معاهدة تجارية بين إيطاليا وسورية، وقّعها بيترو مارينيوني Petro Marignoni مع السّلطان الظّاهر ابن صلاح الدّين.

تراجعت حلب بعد غزو هولاكو لها بسبب الدّمار الذي أوقعه فيها، بشريّاً وعمرانيّاً. وفي عهد المماليك استعادت نشاطها. وكان لموقعها الجغرافي تأثيرٌ كبيرٌ في تجديد علاقاتها التجاريّة. أخذت تصدّر إلى أوروبّا الفستق والقطن، وأصبحت المدينة الأولى للتجارة مع فارس، والسّوق الكبرى للحرير. وكانت تستورد البضائع الغربيّة المختلفة عن طريق البندقيّة. وفي مطلع القرن الخامس عشر، دمّرها من جديد تيمورلنك، فتراجعت من جديد.

بعد فَتْح القسطنطينيّة سنة ١٤٥٢، فقدت الطّرق التجاريّة الشماليّة قيمتَها، ولم تعد السّفن الأوروبيّة تعبر البحر الأسودَ بدءاً من القرن السادس عشر. لهذا أخذت حلب تعتمد على الخطوط التجاريّة البريّة، وكانت على رأس الخطّ التجاريّ بين آسيا وأوروبّا. وبقيت حتى منتصف القرن السّابع عشر، السّوقَ الأكثرَ أهميّةً للتجارة في الشّرق الأدنى.

في سنة ١٥٣٩، أنشئت في حلب القنصلية الأولى لمدينة البندقيّة. وفي العام ١٥٨٣ أنشئت القنصليّة البريطانيّة. بلغ عدد الشركات التجاريّة البريطانيّة العاملة في حلب خمسين شركة سنة ١٦٦٢. وقد ذكرها شكسبير مرّتين: الأولى في مسرحية ماكبَث (الفصل الأول، المشهد

الثالث)، والثانية في مسرحية عُطيل (الفصل الخامس، المشهد الثاني).

وفي السنة **١٦٧٩**، كانت حلب مركز القنصل الفرنسي العام في سورية. وفي السنة **١٦٨٣**، كانت حلب مركز الشركة الهولنديّة التجاريّة لبلاد المشرق، إضافةً إلى كونها مركزاً لقنصليّة هولندا.

كان الفرنسيون في حلب يتحدّثون باللغة البروفانسيّة، لأنّ معظمهم كانوا من مرسيليا. وقد سكنوا في خان الحبّال، وخان النحّاسين.

وكانت حلب تصدّر الأنسجة القطنيّة والحريريّة على اختلافها بين أشهرها الألاجَة، وهي شَملة مصنوعة من خيوط حريريّة وقطنيّة، موشّاة بخيوط ذهبيّة. واشتهرت حلب كذلك بصياغة الحلي الذهبيّة والفضيّة، والأنسجة الصوفيّة والكتانيّة بلون واحد وبألوانٍ متعدّدة، إضافةً إلى صناعة الصّابون وصناعة صبغ الأقمشة والأنسجة ودباغة الجلود، وصناعة الحبال والخيوط من القنّب.

وكانت الإرساليّات الدّينيّة قد سبقت المؤسسات التجارية الأوروبيّة في المجيء إلى حلب. ففي سنة **١٣٣٣**، أُسست الإرساليّة الفرنسيسكانية عند باب أنطاكية. ثم

تحوّلت إلى منطقة الجديدة في حارة السّيسي - وهي تسمية مستمدّة من اسم القدّيس فرانسوا الآسّيزي. وفي سنة ١٦٢٥ وصل الآباء الكبّوشيون، فسكنوا في خان الجمرك. وفي سنة ١٦٢٧ جاء اليسوعيون وسكنوا خان البنادقة. ثم جاء المكتشفون والمعلمون والمبشّرون والأطبّاء والرّحالون والمستشرقون والكتّاب.

ومن المشاهير الفرنسيين الذين عملوا في القنصليّة الفرنسيّة بحلب جان فرانسوا روسّو، وكان يُتقِن العربيّة والفارسيّة والتركيّة. مات في حلب في سنة ١٨٠٨، وخلفه ابنه الذي عمل قنصلاً فيها بين ١٨٠٨ و ١٨٢٦.

وكان لامارتين من الكتّاب الذين زاروا مدينة حلب. وكانت هذه الزيارة في سنة ١٨٣٢، وقد كتب قصيدة أهداها إلى «عربيّة شابّة» تدخّن النّارجيلة في حديقة بحلب، في السنة نفسها.

ونشير هنا إلى أنه في سنة ١٧٠٢، أُسست في حلب المطبعة الأولى.

١٧ - خفاء

وراءَ النّول الذي ينسجُ التّاريخ
قوةٌ خفيّة
تموّه حيناً، وتهمل حيناً،
وتَنْسى حيناً -
وفقاً للوضع والحالة والهدف.
التّاريخ، إجمالاً، كمثل سبّاح يواجه لُججَ البحر،
قلّما يفكّر إلاّ بالظاهر المباشر، بالسّطح،
وبالشاطئ،
أمّا أعماق البحر وأبعادُه
فتبقى بعيدةً في الخفاء.

١٨ - حوار

- هل تعرف كيف نميّز بين السّيارة والشّارع؟
- السّيارة أقلّ سُرعةً.
- هل تعرف كيف نُميّز بين الملاك وسائق السّيارة؟
- الأوّل لا يتوقّف عن الطّيران، والثاني لا يتوقّف عن الكلام.

أخذ مُحدّثي يسترسل في أسئلته، فيما نتّجه نحو حَيّ التّلل. في حيّ التّلل، تسير وسط أريجٍ ينبعث من صدور النّساء وأعناقهنّ، وتُحسّه كمثل طوفانٍ غير مَرْئي. أريجٌ يجعلك أنت كذلك، بسحْرٍ ما، كائناً غير مرئيّ. وتُمضي وقتكَ في تَكْوين غيومٍ يَجهلها المطرُ، والفضاء ضيّقٌ عليها.

لم أفهم كيف يلبس الفضاء هنا ثوباً مليئاً بالثقوب. لم أفهم كيف أن الكلامَ هو الذي يفتح هذه الثّقوب.

- هل تعرف أنّ الكلام هنا يتحوّل، أحياناً، إلى نَمْلٍ طائر؟
- ...
- هل تعرف كيف نميّز بين الحلم والواقع؟
- الحلم عصفورٌ والواقع سكّين.

- الحلم فكرة، وللفكرة، كما يُقال، أجنحة لا يعرفها الواقع.

- هل تعرف كيف نميّز بين الباطن والظاهر؟

- . . .

- ما لكَ؟ لماذا تتكلم وأنتَ نائِم؟ استيقظْ.

ورأيتُ كأنّ الزّمنَ يتجسّد في حيّ التّلل: يَضع قِناعاً من النّجوم، ويُحاور الأبديّة بلسان امْرأة.

- هُنا، غالباً يتحوّل الخيالُ إلى واقعٍ، والواقع إلى خيال.

قال لي الطفلُ الكامنُ فِيَّ.

هَلْ للشّيخ فيّ، قولٌ آخَر؟

ماذا تريد، أيّها الشّيخ؟

قلتَ لي مرّةً: «الأفكارُ سُرْعانَ ما تموت»، ولم أُصْغِ. كان الحقّ معك. هي ذي أراها كمثل ثمارٍ تتساقطُ ولا يأبهُ لها حتّى البستانيّ الذي أمضى حياته ساهراً عليها.

لكن، أنت كذلك تخطئ، أيّها الشّيخ، حتّى في لهوكَ الفردوسيّ.

١٩ - الظلّ الواحد

ليست السّماء زرقاءَ فوق المدينة، وليست رماديّة.

ليس للسماء لونٌ.

للسّماء رائحةٌ، وما من مَصْدَرٍ تستطيع أن تقول عنه بيقينٍ: هذا أصلُ الرّائحة.

وعندما تحاول أن تسألَ التُّرابَ أو ناحيةً في الفضاء، لا يأتيكَ جواب. يأتيك مزيدٌ من الحيرة.

منْشارٌ مِن معدن السياسة، بعلوّ السّماء، يغوصُ في جسد المدينة. أهو أصل الرّائحة.

- «ربّما»،

- قالت حجارةٌ تتوّجَتْ بالنّقوش. وجاهرتْ بالكلمة ذاتِها خُطوطٌ كوفيّةٌ مُورّقة.

غضبتُ على قدميّ لأنّهما لم تتعبا.

وكادت أن تغضبَ عليَّ مئذنة جامع الأُطْروش لأنني لم أعرف، أنا الذي يقول برؤية ما لا يُرى، أن أقرأ حتّى وجهها.

ومن أين يكون لي، إذاً، أن أقرأ ما وراءه؟

- «سعيدةٌ بهذا الفَراغ الذي أتوغّل في أنحائه»، همست في أذنيّ مئذنة جامع التوتة، فيما كان رأسي يرتطم بالأيدي التي تتمازجُ وتتطاول كمثل شبكةٍ تلبسُ أسواق المدينة.

وكنتُ حيّيتُ جامعَ القيقان في حيّ العقبة، وشعرت منذ وقعت عليه عيناي، كأنّه هو الذي يُقبل نحوي آتياً من سَفرٍ في أقاليم ممّا قبل التّاريخ، يتدثّر بالعصور ويُملي رحيقها عليّ.

هل يكشف الضوء عن الأشياء غطاءَها الكامل، أم أنه لا يكشف إلاّ حجابها الأكثر قرباً؟

شغلني هذا السّؤال فيما أخذتُ أتخيّل القلعة كيف تتزنَّرُ بسياجٍ من هباء البشر الذين ماتوا لكي يغلقوها، أو الذين ماتوا لكي يفتحوها، وفيما كنت أتهيّأ لكي أصف تاريخها بأنه أوراقٌ تتطاير في غبارٍ يتطاير.

وشُبِّه لي أن أحجارَ القلعة، وأبوابَها، ونوافذَها، تنتظم في جَوْقةٍ تُطْلِقُ في الفضاء غناءً آخر،

أ - بشرٌ يملأون الأروقة والأقبية بالكلام،
دون أن ينطق أيّ منهم بأيّ كلام.
ب - بشرٌ في مقام الصّفر
يجلسون تحت ظلّ الواحد.
ت - امرأة تتحدث مع نهدَيْها.
ث - زَمنٌ كمثل قنديلٍ أسود
يتدلّى من سقف الأبديّة.
ج - كلاّ،
لا ليلُك يحرّر اليدين،
ولا نَهَارُكَ يحرّر القدمين.
يكفي، أيّها الزّمن
أن تصلبَ جسدَ المكان.
ح - هنا، يَكادُ النَّرْد نفسه،
أن يشكّ في المصادفة.
خ - لم يكن أربابُ القلعة عاجزين عن قتل
مُدُنٍ بكاملها،
وكان كلّ منهم عاجزاً عن قراءة كتابٍ
واحدٍ.

الفجر؟

هل كان ذلك القَبْوُ في القلعة فَجْراً هو الآخر في نظر الآمرين بعمارته، ومهندسيه وبنّائيه وحرّاسه؟

يُنسب إلينا نحن العرب تفنّنٌ هندسيٌ في العمارة:

لكنْ، ما لهذه القلعة - الأنثى تبدو ذكراً؟ هل

المؤنّث عندنا، نحن العرب، غير موجودٍ إلاّ في المعجم؟

تذكّرت ابن عربيّ، وقلت بصوتٍ عالٍ، عبارةً له:

«كُلُّ مكانٍ لا يُؤنَّث، لا يُعوَّلُ عليه.»

بدأت القلعةُ خطواتها الأولى في أيّام سلوقوس نيكادوس. قبل المسيح بثلاثمئةٍ واثنتي عشرة سنة. عندما صار فيها تلامذةٌ للمسيح، أخذ يتعايش تحت رايتها: الذين يعبدون السّماء، يهوداً ونصارى. والذين يسجدون لوجه الحجر الذي كان يُسمّى وثناً. والذين يسجدون للنّار.

ثمّ هلّلت لخيول أبي عبيدة وسيوفه.

ثمّ أخذت تتدحرج كمثل كرةٍ تنزف دماً بين يديْ التّاريخ -

الأمويّ، العبّاسيّ، الطولونيّ، الحمدانيّ، المرداسيّ،

العقيليّ، التركمانيّ، الزنكيّ، الأيوبيّ، المملوكيّ، الجركسيّ، العثمانيّ، -

(سَارَ السلطان سليم إلى حلب. خفَّ أهلُها لملاقاته. طلع إلى القلعة. رأى أشياء أدهشته: ذهباً وفضّة وغيرهما.

- ومَنْ هؤلاء؟

- خلفاء المشايخ الذين أتوا مع الغوريّ، مسافرون إلى بلادهم.

أمر بإحضارهم. رمَى رقابهم عن آخرهم).

خُيّل إليّ أنّ الدّم يتفجّر من أحشاء القلعة وأطرافها. أنّ جلوداً بشريّة تُسْلَخُ، ثمّ تُحشى وتُصْلب (تخيّلٌ تتيحهُ وقائع التّاريخ).

وكدت أن أتخيل أنني فردٌ بين جموعٍ ينتظر كلٌّ منهم حَرْبةً تخترق صدره، أو سيْفاً يقطع عنقه ويبتر أعضاءه.

لماذا لم تتجرّأ يا صديقي المتنبّي أن تسأل سيفَ الدولة: كيفَ هَيّأْتَ لرعيّتكَ أن تصنعَ السيوفَ والرّماحَ، الخناجرَ والقصور، وأن تنعم بحرير السّبايا، ولم تُهيّئ لها أن تصنعَ العلمَ والفنَّ والحريّة؟

أظنّ،

لو تيسّرَ لك اليوم أن ترافقَ سيف الدّولة في نزهةٍ

لمشاهدة المدينة التي أعطته مقاليدها، وراقبته كيف ينظر إلى أيّامه الملقاة على أرصفتها، وكيف يمرّ بها العابرون، ولا يأبهون، لصرختَ قائلاً:

أوه! ما هذا السّرّ الذي يجعل حياةَ أمثالِ هؤلاء القادة عقيمة وجَرْداء!

وكنتَ كرّرت بلسان من جاء بعدك وأحب إعجازك - المعرّي:

ما أدهاكِ أنتِ، وما أبقاكِ يا بيوت العناكب.

- ٢٠ -

جئت إلى القلعة من لا جهة. مغسولاً إلاّ من نَبْضي.
من لا جهة - حيث تُبتكر الأسلحةُ التي لا تشيخ ولا تَفنى.
حيث تظلّ النباتات في سَهَرٍ دائم، ويأرق الحجر -
وكنتُ نزعتُ أقفال المتاهاتِ، وغيّرت أسرارها.

أ - شجرة

إبرةٌ في يد الهواء
ترتق الظلَّ الذي تفتقه يَدُ الشّمس.

ب - جدار

اتركوا للكتابة أن تهرب من الكتب. اتركوا لها أن تنبتَ حيث تتمازَجُ التواريخُ بالطّحالب، وتتساوى الورقةُ اليابسة بمخدّة الفَجْر.

ت - هواء

ربيعٌ يُقبل في خريفٍ مُقْبل.

ث - شمس

لا شيء يتكرّر غير الظلام والموت.
الضّوء دائماً بداية.

ج - بَهار

بهارات الأطعمة، بهاراتُ الإعلان والإعلام.
قولي، أيّتها القطّة الجميلة الضائعة،
قولي شيئاً. المواء قنديل. المواء مدرسة. قولي شيئاً.

ح - منظر

عنقود عنبٍ، لكن في الزّجاج.
وجه بدويّة تنحدر على رأسِها من الجانبين ضفائرُ طويلة.
حليّ لها أشكال دُمىً، ولها أعضاء جنسيّة.
حولها على الحائط صورةُ جنديّ بسلاحه الكامل، كأنّه ذاهبٌ إلى معركة.

خ - خطاب

نزل إلى القبر، لكنه لم يمت.

د - منبر

يجمعُ النجومَ ويوزّعها على الحضور.

ذ - مشهد

شاربان أسودان طويلان،
كمثل مظلّة فوق الذّقن.

ر - مقهى

تربّعت الشّمسُ على الطّاولة، على خدّ الأفق.
على الكرسيّ وكأس الماء،
على الكتاب والجريدة، على الغبار والحصى.
تربّعت في فنجان القهوة وعلى ضفافه،
تربّعت على عتبة المقهى، في الزّقاق المؤدّي إليه،
وعلى رؤوس المآذن،
تربّعت الشّمسُ تربّعت.

ز - عرّاف

سيكون هذا الثّور
حذاءً

في مستقبل قريب.

س - طبيعة صامتة

غبارٌ يُسوِّغ الرّيح،
ريحٌ تُسوِّغ الغبار.

٢١ - جاءت الذّاكرة

جاءت الذّاكرة، وجلست معي في المقهى، إلى جوار القلعة. وضعتْ قدمَيْها مثلي على حصىً، وورق، وأعقاب سجائر. كان رأسُها كرأسي تحت عريشة من أغصان الشجر وظلال الجدران وخيوط الشّمس الأخيرة، قبيل الغروب. وقفتْ بيني وبين ما حولي، عاليةً، ثم تركتني فجأة لا أعرف إلى أين.

هكذا تركت لعائلة أحزاني أن تفاجئني. جلست هذه العائلة والتفّت حولي. ربّما لأنني قلت: سأزورُ التلّة أوّلاً،
- تلك التي كانت النّجوم تهيمن عليها،

لا السّابحة في الفضاء، بل السّابحة في الأيدي.
- «لا تعرف كيف تهرول، ولا كيف تقفز. لا تعرف كيف تسدّد ولا كيف ترمي، ماذا تعرف إذاً؟»

حتّى عندما كنت أختبئ كعصفورٍ في سرير نومي الشّبيه بالحفرة، كنت أشعر أن تلك النّجومَ تجثم ساهرةً بين كتفيّ.

أيّامٌ - غُدْرانٌ من العذاب. مع ذلك، ها هي عائلة أحزاني تطفو عليها كمثل أزهار اللّوتس.

أو ربّما فاجأتني لأنّ القلعة تُذكّر بتلّةٍ أخرى، غير تلّة النّجوم، تُسمّى الآن جبل الجوشن؟

«احتزّ رأسه. أخذه مع رؤوس القتلى والنساء والأطفال، وسار إلى يزيد. مَرّ بطريقه على حلب. نزل بهم عند الجبل غربي حلب. قطرت من رأس الحسين نقطة دمٍ على الصّخر. بقي أثرها إلى عهد سيف الدّولة. عمّر على الصّخر مشهداً سُمّي مشهدَ النّقطة.

(. . .) وأسقطت إحدى نساء الحسين جنيناً، دفنوه عند ذاك الجبل. مرّةً، رأى سيف الدّولة نوراً عنده. ثم تكرّر ظهورُ النّور مراراً. ذهبَ إلى المكان. أمرَ بحفره. وجد حجراً نُقش عليه: «هذا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب». بنى عنده مسجداً سُمّي مسجدَ الطَّرح. وهو الآن مشهور باسم مسجد الشيخ محسن.

من ذلك الوقت، سُمّي الجبلُ، جبلَ الجوشَن، نسبةً إلى قاتل الحسين، شمر بن الجوشن».

أو لعلّها فاجأتني، لأنني ذكرتُ ذلك التلّ الآخر، -

«ظهر قومٌ يقال لهم الرّاونْديّة. خرجوا بحلب.

زعموا أنّهم بمنزلة الملائكة. صعدوا تَلاً بحلب،
ولبسوا ثياباً من حريرٍ، وطاروا...
وقيل: هلكوا».

غير أنّني لستُ ملاكاً، ولا ألبس الحرير.
وداعاً، عائلة أحزاني.

- ٢٢ -

كنت، فيما أعبر المدينة إلى القلعة، أشعر أنني أكتب خطواتي على لحظاتٍ طينيّة، ولها أشكال الرُّقُم. وكانت بعض الجدران المطلّة على الشّوارع تلفّ أعناقَها بمناديلَ ينقشها ويزركشها حِبْرٌ أسود. وبدأت هذه المناديل تتطايرَ في الهواء.

لم يكن يحقّ لي الجلوس.

تابعت طريقي. كان صوتُ أمّ كلثوم يخرج من راديو تجرّه عربةٌ صغيرة، كأنّه يخرج مُبلّلاً بلهاث الأيّام، بين هدير شاحنة فارغة، وأصوات فلاّحين يبيعون الفستقَ الأخضر.

- ماذا تعمل؟

- لا أعمل. أتحرّك، أتساءَلُ كمن يُصلّي لكي يُصبحَ الزّرنيخ عسلاً.

*

جامعٌ -

كلّ حجَرٍ حُنْجرة.

*

وجهُ عاملٍ، - صحنٌ من الغبار.
وجهُ بدويّة، - أكثرُ من حديقةٍ للنّظر.

*

- السّاعة، الآن؟
سلسلةٌ في يدِ الغَيْب.

كان يَتّكئ على كيسٍ مليءٍ بحنطة الفرات. إلى جواره امرأةٌ تكادُ أن تغفو. أهي رفيقته في حصادِ القمح؟ ربّما. ذلك أنني رأيت أهدابه، وهو ينظر إليها، تنزل على وجهه كمثل السّنابل.

*

بدأت الشّمسُ تتدحرجُ على مُنْحَدَراتِ الظلّ.

*

نباتاتٌ تخترقُ وَجْهَ الإسفلت، احتفاءً بالضّوء.

*

كبشٌ في عنقه خيطُ حريرٍ أحمر: كبشٌ مَسْحور.

*

شخصٌ له شهرةٌ عالية كمثل ضبابٍ يغطي الجبال. آخَرُ له قامة الأَلِف: هل عمله الدّائب هو أن يضربَ جسدَه بسيفِ النحول؟

*

امرأة مسكوبةٌ في عمودٍ أسود، - جَرّةٌ سوداء مليئةٌ بكحولٍ سَوْداء. ومن ضفافها تطفح الشّهوة.

*

لا تزال القلعةُ تنتظرني، جالسةً في حضن سوادٍ آخر.

القلعة؟ غداً. الآن، المقهى.

مقهى القلعة مُصغّرٌ لسديم المدينة. مكانٌ هو في الوقت نفسه زمان. من الأجسام التي تعمرهُ، يتصاعَدُ هباءٌ واحدٌ. هباءٌ يتدَثّرُ الهواء. هواءٌ كمثل عَربةٍ تقطرُ النّاس. تَرفَّقْ، يا مهمازَ الغُبار.

*

أخذت الشّمسُ تنزل بطيئةً بين فَخذي السّماء.

القلعة؟ غداً.

إِذاً، أعود إلى الفندق. من هناك أستطيعُ أن أرى بشكلٍ أفضل، سريرَ الشّمس، ولونَ غطائه. يطيبُ لي أحياناً أن أنظرَ إليها تغسلُ وجهَها بماء الغروب.

*

آخرون يعودون، هم أيضاً، من أماكن أعمالهم إلى أماكن سُكْناهم. كلٌّ، في طريق العودة، يحفر بخطواته أو بأحلامه قبراً يرمي فيه جثة النّهار.

*

- امرأةٌ،
تُسدل ستارَ نافذتِها. كمثل غيرها، تتهيّأ لكي تصعدَ سلالمَ اللّيل نحو شموسه العالية.

- ينبغي، أيّها العابر، أن تقتديَ بطمأنينة الغبار.
- هيهات، هيهات! من أين ليَ الأسنان التي تقرض صخرة الوقت؟

٢٣ - المالُ - النّمل

خرجت.

فيما كنت ألتفت إلى القلعة، مودّعاً، كانت تخرج من جُدرانها التي تُرَقِّعُها خِرَقُ العُصور أشباحٌ مدجّجةٌ بالسّلاح تتنافسُ على الأسلاب التي تركها المهزومون. غزوٌ داخل غزو. على الأكتاف رؤوسٌ تنتمي إلى أكتافٍ أخرى. على النّحور سواعدُ كانت تتحرّك فوق نحورٍ أخرى. قطعانٌ جامحةٌ لا يروّضها إلاّ الذّهب. ذبحٌ ورقْصٌ تحت سقْفٍ واحد. مأتمٌ وعرسٌ في لحظةٍ واحدة.

أو هكذا شُبّه لي.

وانظروا: يَسْبحُ المالُ في الشّوارع كأنّه النّمل. والأيدي كلّها تسرق الأرضَ باسم السّماء، أو تسرقُ الثّانية باسْم الأولى.

بلَى، لا بُدّ لمن يريد أن يدرسَ فيزياءَ الشّوارع من أن يدرسَ أوّلاً، كيمياءَ الشّهوات.

بعيداً عن القلعة، -

صفوفٌ من بائعي الفستق الأخضر. شيخٌ يتوكّأُ على عُكّازٍ. لِلعُكّازِ رأسُ امرأةٍ، وطرفُه الأسفل دقيقٌ كرأس

الحَرْبة. سوقٌ بسَقْفٍ مليءٍ بالثّقوب تنزل منه أشّعةُ الشّمس في أشكالِ دنانيرَ منشورة، تفرّ من الأصابع: التحيّة للمتنبّي. سوقٌ بجدرانٍ تزيّنها بُسُطٌ بدويّة حمراء سوداء. حانوتٌ - معرضٌ للنّراجيل. حانوتُ عقاقير وأعشابٍ طبيّة ومَراهم ومقوّيات ومشهّيات. شرابُ الرأس للحكمة، شرابُ القلب للمحبّة. طِلَّسْماتٌ لأسافلِ الجسد وأعاليه. حانوتٌ بشكل محراب. امرأةٌ تسيرُ فاتحةً مظلّةً سوداء لوقاية بياضها من حرارة الشّمس. امرأة بلباسٍ أسود يزيدُ وجهها بياضاً. مسجدٌ يُرمّم. آخر يُرَمَّمُ أيضاً. آخرُ يُبنى. آخرُ أيضاً يُبنى ويُرمّم. مكتبة؟ لا كتب، بل أقلامٌ ودفاتر.

بدأتِ الظّلمةُ تطرد الشّمسَ. أخذت تتربّع على حافّة الأفق. على الجدران، والأبوابِ، والنوافذ. على أغصان الشّجر والمآذن. على رؤوس المارّة.

- ٢٤ -

بعيداً عن القلعة.

في المدينة القديمة. أسيرُ على تُرابٍ سبقتني إليه خطوات المتنبّي. ربّما تَعانَقَ أَثَرُ خطواته وغبار خطواتي. حوليَ مِن جميع الجهات غبارٌ آخر لا يَراهُ، لا يحسّ به إلاّ القَلب.

أخَذني الشّعورُ بالوحدة، وأنا في وسط الجموع. كانت كمثل شبكة هائلة تُطْبق على أطْرافي. شعرتُ أنّ خطواتي تتخاصم: بعضها يطارد بعضاً، وبعضها يَنْفي بعضاً.

آهِ، كلاّ،

لم يكن ذلك إلاّ توهّماً. فأنا أسيرُ في أحد شوارع باريس، في طريقي لزيارةٍ ثانية لماري وَإيبْلا وأبجديّةِ أوغاريت. وكان نَهرُ السّين يفتح ذراعيه واسعتين، بلا حدّ، لكي يَسْتقبِلَ بزهْوٍ وشَغَفٍ ودهشة، ذلك الإبداعَ المُفْردَ القديمَ - الحديث، الآتي مِن ضِفافِنا المتوسّطية، ومن أحضان الفرات.

٢٥ - المدرسة الحلويّة(*)

في المدرسة الحلويّة فراغٌ -
لا فراغ بَوّابتها
أو أعمدتها البيزنطيّة
أو محراب ابن العديم،
بل فراغ الحَلْوى.
(على حافَّةِ الرّغيف
يترنّح الغيب).

ليتني أقدر اليوم أن أسأل السلطانَ نور الدين الزّنكي،
لماذا كان يوزّع الحلوى في «كاتدرائية حلب العظمى؟»
ألأنّها حُوّلت إلى مسجدٍ ومدرسة للفقه الحنفي؟
أو ليتني أقدر أن أسأل ابنَ العديم نفسه،
أو ابْن الشُّحنة الذي درّسَ في هذه المدرسة، وأرّخ لحلب، وقابل تيمورلنك وساجله.
لكن، ماذا سيجدينيَ هذا السؤال؟
خيرٌ لي أن أكتفيَ بسؤال الفنّ.
هكذا سأسأل صانعَ محراب ابن العديم، هذا العمل

الفنّي الفريد، زخرفةً وإتقاناً، سأسأل أبا الحسين ابنَ محمّد الحرّاني (عبد الله بن أحمد النّجار).

ولماذا أسأله؟

سأكتفي بأن أقدّم له تحيّة الفنّ.

حيث يَعبرُ الضّوءُ،

يرتجلُ مَساجده.

(*) هي نفسها «كاتدرائية حلب العظمى»، البيزنطيّة الطّراز، والتي بنيت في القرن الخامس الميلادي على أنقاض معابدَ قديمة: آرامية، إغريقية - رومانية.

حُوّلت الكاتدرائية إلى مسجدٍ في السّنة ١١٢٤ (٥١٥ هـ). أنشئت فيه مدرسة لتعليم المذهب الحنفي. سمّيت الحلويّة في السنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩م) لأن نور الدّين الزّنكي كان يوزّع فيها الحَلوى، في الأيام الأخيرة من شهر رمضان.

فيها محراب ابن العديم، الخشبي، البديع الزخرفة. وبين من درّسوا فيها ابن الشُّحنة، مؤرّخ حلب (الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب).

٢٦ - المدرسة الشّاذبختيّة(*)

(مسجد الشيخ معروف بن جمر)

«في حلب أربعة محاريبَ تشبهني»:
يقول محراب المدرسة الشّاذبختيّة، -
محراب السّلطانية، محراب الفردوس،
محراب خانقاه الفرافرة،
ومحراب مشهد الحسين، الذي اختفى.
في الخفاء،
رأيتُ شَعْرَ الزّمنِ يتساقَطُ حول المسجد،
وكان ضوءُ المدرسة التي تنزوي في أحضانه،
يرقص على العتبة،
وأحياناً ينتشي، فيخرج من نفسه
ويتسلّق، راقِصاً، الجدرانَ وجذوعَ
الأشجارِ المجاورة.
في الخفاء كذلك،
رأيتُ حشراتٍ قارضة
تلتهمُ أغصانَ الأُفُق.
وخُيِّل إليَّ

أنَ الشّيخَ ابْنَ جَمْرٍ
يتمطّى في كفنه،
ويتململُ كأنه يريد أن ينهض من قبره.
ألديكَ قوّةٌ لكي تنهضَ
أنتَ، أيّها الفَجْر؟

(*) نسبة إلى شاذبخت، وهو من أصل هندي، وكان مملوكاً لنور الدّين الزّنكي. ومحراب المدرسة - المسجد أيّوبيّ الطراز.
وهو من المرمر، وعموداه من المرمر كذلك، وينتهي كلٌّ منهما بتاجٍ بديع.
معماريّ المدرسة هو قاسم بن سعيد بناها في السنة ١١٩٣ (٥٨٩ هـ)
وتعاون على صنع المحراب نجّاران فنّانان هما: أبو الرَّجا بن يحيى، وأخوه عبد الله.
أمّا الشّيخ معروف فهو محارب فدائيٌّ في أثناء الحرب الصّليبية.

٢٧ - جامع الحيّات(*)

عند مدخل الجامع، قيثارةٌ لا تُرى،
كأنّها ذائبةٌ في الهواء.
أحياناً، تتلألأ أوتارُها في أشعّة الشّمس،
تآخِياً مع الحيّات التي تعشق، هي كذلك، الشّمس.

قيثارةٌ يعزف عليها نَردُ التّاريخ.

آسٍ عَزْفُكَ وَفاجِعٌ، أيّها النّرد.

(*) كان ينهض في موقع هذا الجامع معبدٌ حثيّ. في صحنه وأعمدة رواقه حجارة سوداء بازلتية. ثم أصبح كنيساً يهوديّاً يُعرف باسم كنيس مثقال. ثم حُوّل إلى مسجد في القرن الرابع عشر، في زمن السلطان الناصر محمد، وسُمّي بالنّاصريّة. أُحرق في أيّام تيمورلنك، ورُمِّم فيما بعد. في قنطرة مَدْخلهِ نقشٌ يمثّل حيّات، ومن هنا سُمّي بجامع الحيّات. وفي صحن داره كتابةٌ بالعبريّة نَصّها: «في السنة ١٥٥٣ من التقويم السلوقي، بنى هذا الجدار مَجّاناً، المعماريّ هليل الكاهن ابن ناتان». هذا التّاريخ يوافق التّاريخ الميلادي ١٢٤١، والهجري ٦٣٨.

في شمالي صحنه رواقٌ إلى غربه ثلاث غرف. وفوق مدخله مئذنة صغيرة.

٢٨ - دير سمعان

- ١ -

لم تنقطع سماءُ سمعان عن الحِضانة، على الرّغم من خَرابٍ كثيرٍ أصابَ الأرض. على الرّغم من تلك المدن الكثيرة التي ماتت - ولا قيامة.

البيوض التي تجثم عليها، اليوم،
أكثر غرابةً وأكثر غموضاً من ذي قبل.

- ٢ -

هنا، تضع الحكمةُ الشّيءَ واللاّشيءَ في صَحْنٍ واحد.

- ٣ -

شمسٌ سوداء
تتدحرج على عمود سمعان.

- ٤ -

الطّبيعة هنا مليئةٌ بشيوخٍ يتقاسمون قبائلَ الغُبار، -
هكذا كنتُ أسمع السُّهولَ التي تزنّر المدينة،
تغنّي صَمتَها الملتبس. ولم تكن هناك أيّة غيمةٍ تخلع حذاءها، وتمشي حافيةً على رؤوس الشجر، كما ألفت رؤية ذلك في طفولتي.

- ٥ -

ينام سمعان إزاءك، أنّى أدرتَ وجهكَ، على بساطٍ تنسجه
أشعّة الشمس.

هنا، لا ترى الحياة. لا ترى الموت. تَرى ما بينهما.

- ٦ -

مِن وَقْع الخطواتِ القديمةِ في دير سمعان،
لا تزال ترنّ أصداءُ الترحّل.
الترحّل حديقةٌ لغبار الطّلع.

- ٧ -

لا تقدر إلاّ أن تنظر إلى الوراء
فيما تتقدّم نحو عمود سمعان.
وتأخذك الحيرةُ وتتساءل:
لماذا الماقَبْلُ، أحياناً،
كأنّه هو نفسه المابَعْدُ؟

- ٨ -

أؤكّد لمن يشكّ
أنني قبل أن أودّعَ ديرَ سمعان،
حضرت فيه زواجاً
بين تاريخه وغبار الطّلع.

٢٩ - خان الصّابون/ الواجهة

من الجهات كلّها
تتهجّى القوافلُ
الواجهة التي تتوّج خان الصّابون.
أصغوا إلى خان الصّابون، يَصف المدينة:
إنها كمثل امرأةٍ عارية
ولا تلبس إلاّ ثياب الذكرى.

في خان الصّابون،
تبدو نارُ الترحّل وماؤه عائلةً واحدة.
لا مكانٌ على كتف الترحّل
إلاّ لسلاحٍ واحد:
الخُبْزِ مُخَمَّراً بالسّلام.(*)

(*) بين أهم الخانات في حلب، إضافةً إلى خان الصّابون، خان خايربك، وخان أبرك، وخان الجمرك، وخان الوزير، وخان النحّاسين، وخان العلبيّة، وخان الحبّال، وخان البرغل، وخان التُّتُن. ويبلغ عدد الخانات حوالى ٢٢ خاناً.

٣٠ - الحانوت

قَفصٌ يَحتضن بلبلاً،

فوق عتبة حانوتٍ لبيع الأقمشة الحريريّة،

يبدو الحانوت، لصغره، كأنه قَفَصٌ آخر.

- هل يؤنسكَ هذا البلبل؟

سألت الحانوتيّ الصّغير الأسمر.

تأمّلَ. نظر إلى كتابٍ في يدي اليمنى، وقال بنبرةٍ تمتزج فيها الحكمةُ بالحزن:

- الفرق بيني وبينه، مشيراً إلى البلبل،

هو أنّه يموت إذا غادر قفصَه،

وأنّني أحيا إذا تركتُ قفصي.

٣١ - السّوق

تبدو السّوق كمثل جَوْقةٍ تتهيَّأ اللّيل كلّه،
لكي تعزف النّهارَ كلّه.
ينهض النّهار، ويتمايل في يد الزّمن كمثل سَاقِ وَرْدَةٍ
يعرّش عليها ضوء التّاريخ.
في كلّ سُوقٍ خِصامٌ لا يتوقّف بين الظلّ والضّوء:
كلاهما يريد أن يكون الحارس الأوّل.
هكذا تتحرّك السّوق
بين ليلٍ يتغطّى بجدائل الحلم
ونهارٍ يستيقظُ لابساً بَزّةَ العمل.
يمشي الحريرُ في السّوق بين خواصر العابرين.
أسواقٌ - سفنٌ
شجرٌ في محيط الأيّام.(*)

(*) يَصل عددُ أسواق حلب القديمة إلى سبع وثلاثين. من أهمّها سوق أنطاكية، سوق العطّارين، سوق المناديل، سوق خان الحرير، سوق خان النحّاسين، سوق الصّابون، سوق الصيّاغ.

٣٢ - الشيخ

- أيّها الشّيخُ الذي يَعيشُ فِيَّ، ما رأيُكَ؟

- ما رأيك أنتَ كذلك، أيّها الطّفل الذي يَلهُو فِيَّ؟

- ربّما لن ترى، أينما ذهبْتَ في أنحاء المدينة إلاّ بعض آثارٍ لا تكاد تذكر للشخص الذي هيمنَ عليها قرابة نصف قرن: سيف الدّولة الحمداني.

لكن، ستجد في كلّ زاويةٍ أثراً من صديقه - صديقكَ المتنبّي.

قلَّبْتُ الشوارع. تصفّحت الأزقة. تقرّيتُ الجدران. دخلتُ إلى البيوت والمدارس والجامعات. كدت في بحثي عن آثار المتنبّي أن أتسلّق حِبالَ الهواء، وأن أمسك بأشعّة الشّمس.

كلاّ، لا أثر. لا أثر كما يمكن أن يحلمَ المتنبّي، أو يريد الشعر.

أنتَ كذلكَ تخطئ أيّها الشّيخ.

٣٣ - بيت غزالة

في بيت غزالة،
تعرّفت على كثير من الطّرق التّائهة
التي تسلكها الكواكب.
عندما رأيت هذا البيت،
أخذت أتردّد في تصديق صِحّة القول بالفَناء،
وصرت أميل إلى التصديق
بأن الإنسان يمكن أن يقيمَ في أحلامهِ،
وأن يواصلَ حياته فيها.
أعطاني جمال هذا البيت يديه كي أمتحنَ قدرتي وأُجْرِيَ
فيهما دمَ الشعر في عروق الفضاء(*).

(*) بين أهمّ البيوت القديمة التي لا تزال قائمة حتى الآن، إضافةً إلى بيت غزالة،
دار كبّة، دار صادر، دار بليط، دار باسيل، دار دلال، دار وكيل، دار الصّايغ، دار أجقباش.

٣٤ - مشهد الحسين

نقطة الدّم. لونٌ أرجوانيّ. أحفر في الحجر طريقاً وأصادف
القتيلَ والقاتل. تحت بَشَرةِ التّاريخ يسيل
دمُ الحسين. في الفراغ يتدلّى القاتِلُ كمثل
قشٍّ مجنون.

*

حجر النّقطة مسقوفٌ بالجِراح. والمكان الذي يتمدّد
فيه يغيّر
دائماً تخومه.

*

حول الحجر، كلّ يوم، تقرأ الشّمسُ كتابَ الدّمع، ويتعلّم
الزّمنُ البكاء.
للبكاء في كلّ زاوية مِنديلٌ أخضر.

*

يكذبُ الزّمنُ، ويصدُقُ الحجر.

*

أتقرّى في هذا الحجر إيماناً
يجعل صاحبه يشعر أنّه لكي يحيا،
ليس في حاجةٍ إلى جسمهِ.

٣٥ - باب أنطاكية

ذلك الحِبرُ الذي كان يرسم الطّريقَ
بين حلبٍ وأنطاكية،
تحوّل اليومَ إلى ما يشبه شبَحاً سائلاً -
صدرهُ سفينةٌ
في خاصرته جبلٌ
وبين كتفيه كرةٌ من المعدن.
وقفتُ بين البرجين اللّذين يحتضنان
باب أنطاكية
كمثل ذراعين أرهقهما السّهر،
وأخذت أتأمل ذلك الشّبَح.
كان عليّ أن أطويَ تاريخاً مُرّاً
كما لو أنني أنتزع نفسيَ من نفسي،
لكي أشعر أنّني حيٌّ
وأنني أحلمُ وأفكّر.

الفضاء قنديلٌ يكاد أن ينطفئ،
والغبارُ ينهش رئةَ الرّيح.

٣٦ - بيت المتنبّي ، مُتخَيَّلاً

للمكان الذي يقال إنه الموقع الذي رفعَ فيه المتنبّي
بيتَه ،
رائحة قوافلَ لا يزال وَقْعُ خطواتها ،
يرّن في هباء الشّمس .

إشارات إيقاعٍ ينبجس من قصائدَ
أقرأ فيها
كيف أن المتنبّي استشرفَ النّهايات ،
ولم يُرِد أن يشهدَ الصّاعقة الأخيرة التي
نزلت على صديقه سيف الدّولة .
وأخذت فيما أغادر موقع البيت ، أردّد في نفسي :
حَقّاً ،
ترك المتنبّي وراءه
عتاداً ضَخْماً ، وجيوشاً كثيرة
لكي تتابع ، بعد غيابه ، حروبه الطّويلة .

٣٧ - خاتمٌ - هديّة
إلى حلب

كيف قدرت هذه الغيومُ
التي تجيءُ من جبل سمعان،
والتي تشتعل شيباً
أن تغيّرَ اتّجاهَ الرّيح؟

لماذا إذاً، أيتّها الغيومُ،
لا تغسلين هذه الأرض؟

كلاّ،
لن أفارق جُرْحَ التّكوين،
ولن أتوقّف عن عناق الفضاء.

الزّهرةُ التي قطفها المساء
من حديقة الجرح،
سَكَبَ نُصْفَها في ماء المعنى:
الفجرُ برعُمها الأوّل.

الجراح وقاسيون وتسنيم

تحية إلى محمد علي الأتاسي

- «النهارُ، كلّ نهارٍ معركة، بدءاً من شروق الشّمس».

يقول ماسح الأحذية، الأسمرُ الشابُّ الآتي...

- من الجنوب؟

- «لا. من الشمال».

ويتابع:

- «ولا ضمانَ في هذه المعركة. أنتَ وحظّك».

*

في المقهى، صباحاً.

النهار كمثل رسّامٍ، والوجوه الدفاتر:

وجهٌ يبدو كأن صاحبه مجرّد عينين وأذنين، يراقب ويتنصَّت.

وجهٌ كأن صاحبه يرفض أن يروّضَ الحيوانَ الذي فيه.

وجهٌ فأرةٌ تحت إِبْطِ المقهى.

وجهٌ فأسٌ في جسد المقهى.

*

ما الذي يميّز الإنسان عن بقية الكائنات؟

أرسطو: النطق (الإنسان حيوانٌ ناطق).

ديكارت: الكلام.

رابليه: الضحك.

بريا - سافاران: القدرة على تَقْطير الأشربة من الثمار!

بومارشيه: شرب الماء دون عطش، والممارسة الجنسية الدائمة.

فاليري: القدرة على صُنْعِ عُقْدة!

تذكّرت هذه التحديدات التي يرى أصحابُها، كلٌّ من وجهة نظره الخاصة، أنها هي التي تميز الإنسان عن بقية الخلائق، فيما أتجوّل في الحميدية وما حولها، وحدي - ظهراً. وقلت في نفسي: الأرجح: يَسْتحيلُ تحديدُ هذه القامة شبه المخروطية، شبه المستطيلة، والتي تُسمّى الإنسان.



... وليست المسألة، بالنسبة إليّ، يا محمد علي الأتاسي، في التجاوز الدائم للذّات، كما يعلّم نيتشه، والمتصوفون قبله. أو في الابتكار المتواصل لكل خطوةٍ نخطوها.

المسألة هي، على العكس، في إرادة الإنسان، ذكراً وأنثى، أن يحافظ على حياته، على استمرارها، على مجرّد استمرارها حتى في التعثّر، والتخبّط، والشقاء، واليأس.

أوه، ما أشقى الإنسان الذي يعيش في آلةٍ متنقلةٍ من المشكلات، بين شروق الشّمس وغروبها: الماء، الهواء، الضّوء، الخبز، التنقل، السكن، المدرسة، الجامعة... الخ. من أين لمثل هذا الإنسان الوقت الذي يُتيح له أن يُحسَّ بذاتيّته؟ أن يتأمل، ويقرأ، ويحبّ، ويحلم، ويخطّط للمستقبل؟ وقبل ذلك علينا أن نُدهش من قدرته على الحياة، مجرّد الحياة في قلب هذه المُشْكلات اليومية، وفي دوّامتها. البناء هنا هو نفسه ليس بناءَ تخطيطٍ، أو بناءً على قاعدة. إنه بناء إنسان عابر في صحراء. بناء في الفراغ.

وما أوسع هذا الفراغ.

*

أمام الحاضر وظلماته،

أمام المستقبل ومجهولاته،

ليس لك إلاّ أن تنْحتَ حياتك. أن تنْحتَها يوماً يوماً.
دقيقةً دقيقة.

*

بلى، أحبّ أن أسيرَ، غُفْلاً وغيرَ مرئيٍّ، بين الجموع في الشوارع. أن أصغي إليهم - إلى تأوهاتهم، وتساؤلاتهم، وغمغماتهم. أحبّ أن أنظر خصوصاً إلى وجوه الأشخاص الذين تبدو عليهم آثار الشيخوخة، رجالاً ونساءً. عن أيّ شيء يبحث هؤلاء؟ عن السعادة؟ وما تكونُ، الآن، بالنسبة إليهم؟ عن العمل؟ لكن، أهناك عمل؟

وما هذه الكيمياء الخفية التي يملكها بعضهم، والتي تقدر في لحظة، أن تحوّل جراحهم إلى ينابيع من الأمل؟

*

كلاّ، لا أزعم أنّ لديَّ معرفةً كاملةً بأيّ شيء. ولا أدَّعي أنَّ لكلامي وقعاً سحرياً أو تأثيراً في سامعه أو قارئه. وأنا ممّن يقولون إنّ الكلام مهما كان جامحاً يظلّ عاجزاً عن الإحاطة بزلازل الوجود. كيف يستطيع الكلام أن يلبس العذاب الذي يعيشه جائعٌ، أو مشرّد، أو سجين؟ كيف يستطيع أن يتطابق مع فاجعة إنسانٍ فقد أقرب الناس إليه؟ أو مع حالة امرأة تعيش على هامش جنسها، وحيدة، في عزلة كاملة؟ أو مع حالة رجل يشعر أنّ الحياة عبءٌ مُريعٌ لا يقدر أن يُزيحه غير الموت؟



لا أشكو. لا أنتقد. ولا أطلب شيئاً.

ليس لأنني في غنى عن كلّ شيءٍ. بل لأنني لا أوقنُ بأية قدرة يمكن أن تلبّي ما أطلبه. بالأحرى: ما أطلبه «جلَّ أن يُسمّى»، وفقاً لعبارة قائدنا وسيدنا، المتنبّي.

إنَّما أُلاحظ، وأُعاين، وأشهد، لكي يحق لي أن أسأل: لماذا يأخذني المنفى؟ ولماذا أضطرب كلما وجّهت وجهي إلى دمشق؟

دال ميم شين قاف، –

أغنّي الموسيقى التي تتموّج في هذه الحروف.

أغني الصوتَ الذي يمتلئ بِصرفها ونحوها، بتصاريفها واشتقاقاتها. أغنّي الضوءَ الذي يتوهج فيها، والفضاءَ الذي تسيل فيه،

أغنّي مجرد الاسم، مجرد اللفظ، مجرد الشكل، ذلك أنني في هذه اللحظة صديق السراب،

ولماذا لا أضيفُ لنبع الأسطورة ماءً آخر؟

ولماذا يأخذني المنفى؟

ولماذا أضطرب كلما وجّهتُ وجهي إلى دمشق؟



لكن، ما تكون دمشق، يا محمد علي الأتاسي؟

أهي مجرد الركض ومجرد النوم؟ أهي الصراخ، المهلِّلُ أو المريرُ، العالِق في حنجرة الفضاء؟ أهي قشرة الذهب، وصدأ الفضة؟ أهي الحَفْرُ والنَّبْشُ، وهَلَعُ الشارد في المتاهات، في معارج الظن، في مناجم الرمل؟

وأَصْغِ: كلّ شجرة آهةٌ، وكلّ جدارٍ يَنْضَح بالسؤال.

واسْتَشْرِفْ: ليلُ الورق عطَشٌ إلى حِبْر المعنى.

وهيهات هيهات أن يرتوي.

- من أين يجيء هذا الفلاح وينثر كلماته في شوارع دمشق؟

من أين يجيء هذا القروي الذي يُعيد النارنج الدمشقي إلى رحيقه الأول؟

- كلاّ، لم تكن الغُوطَةُ أكثر من جرحٍ مفتوحٍ في كلّ شريانٍ من شرايينه. ولم يكن قاسيون إلاّ زفرةً عاليةً تتصاعد من أعماقه.

تَسْنيمُ،

هاتي طبقَ أعشابكِ، وضَمِّدي جراحَ العاشق.



ثَمّة امرأةٌ تنتحبُ في طيّاتِ كتابٍ، في حروف اللغة،

شمسيّةً وقمريةّ. تنتحب وتتمزق.

ثمّة حارسٌ يمتشِق سلاحه بين الكلمة والكلمة.

ثمّة راعٍ يطوفُ لا يعرفُ أن يَرْعى غير الأشلاء.

يا محمد علي الأتاسي،

مَنْ قال لك: السماءُ امرأةٌ، والأرض حُقولٌ من الحبّ؟

*

الغبارُ يلتهمُ المارّة،

غبارُ الذهب، غبارُ الفضّة، غبارُ العالم.

الغبارُ يقرع أجراسه في حقائب العائدين، والمهاجرين، وثمّة بردٌ يكادُ أن يرتجفَ منه حتى جسد الشّمس.

- أيها الشارع - المُشترع،

أهنالكَ سياسةٌ يمكن وصفها بأنها «عدمية»؟ سياسةٌ تقوم حصراً على متعة السلطة وشهوة الملك؟ ويكون الإنسان في هذا الشرع - الشارع مجرد أداةٍ لإرادة القوة؟ سياسة تتوالد ذاتياً وتلتهم ذاتها في آن؟ سياسة عالم يهدم نفسه فيما يَبْنيها؟ سياسة «تعمل» كثيراً كثيراً، و«تفكر» قليلاً قليلاً؟ سياسة تمنع غيرها من أن يفكّر فيها أو في عملها؟

و«فكَّر» كلمةٌ تعني، تحديداً، «واجَهَ»، ولا تعني «وافقَ» أو «رضيَ». لكن «وَاجَهَ» لا تعني الآخرَ وحده، وإنما تعني الذات - وربما، أولاً.

- ماذا قلتَ، يا محمد علي الأتاسي؟

يكفي أن تُغرينا، صديقي الشاعر الفرنسي آلان جوفروا وأنا بزيارة البيوت القديمة في دمشق. يكفي أن تحدثنا عنها كأنها أجزاء غالية من حياتك. كأنّ كل واحدٍ منها، البيتُ الذي ولدت فيه وترعرعت. يكفي أن تزيد في وجعنا. هذه بيوتٌ لم تَعُدْ لنا. والفنّ الذي صاغها دخل في الذاكرة. لم يكن أكثر من شهابٍ شَعَّ في فضائنا فترة ثم ذهب إلى غيرنا. وتخطّفته الهندسات. إنه الآن فنّ الآخرين ولم يَعُدْ قادراً أن يحيا إلاّ بهم، وفي ظلّهم. إنها بيوتٌ لآلئُ فَرّت من أيدينا. كلّ شيء عظيم يفرّ من أيدينا. حتّى شعرنا نفسه، هويتنا الفريدة.

خيرٌ لنا، الآن، يا محمد علي الأتاسي، أن نزور أمكنةً أخرى. أن نتحدث، مثلاً، مع قبر معاوية، الخليفة، المؤسِّس، هذا إذا حظينا بمن يعرف مكانه، أو بمن يعرف أن يدلّنا عليه. أذكر أنني ذهبت إليه، مرّة، في أواسط السبعينات، ولم أكن دخلت دمشق، منذ عشرين عاماً. غير

أنّ الطريق التي قادتني إليه، بعد عناء طويل، كانت صعبة ومعقّدة. لم أعد أذكرها، أنا نفسي. مع ذلك، لنحاول.

قبرٌ - سِرّ.

كم هو متقلِّبٌ وجهُ التاريخ.

*

ويا محمد علي الأتاسي،

لا تزال أهراءُ الوقت طافحةً بالأظافر. وها هي أطيافُ التاريخ تتطايرُ كمثل أجنحةٍ سوداء في فضاء الشوارع. وها هو الصمت المنغمس في طَشْتِ العادة يرفع بيارقَهُ من جديد. (العادة جرثومةٌ بين فخذيها مسمارٌ ذكوريّ). وها هو الشارع لا يتذّكر إلاّ شهبَ الصهباء التي تنعصرُ بين أقدام العُشّاق، وتختبئ في جِرار الأصدقاء.

- قُصُّوا إذاً أجنحةَ شهواته. اتركوه كمثل نَخْلةٍ تتقصَّف وحيدةً في صحراء اللغة.

إذا ما نديمي علَّني، ثمّ علَّني
ثلاث زجاجاتٍ لهُنَّ هديرُ
خَرْجتُ أجرُّ الذَّيْلَ تيهاً، كأنني
عليك، أمير المؤمنين، أميرُ.

(الأخطل، مخاطباً عبد الملك بن مروان).

*

لم يعد لدمشقَ أبوابٌ. تفجّرت، فائضةً عن حدودها. صارت الطبيعة كلّها أبواباً لها.

*

لكلّ شريانٍ في داخل دمشق، وريدٌ في الخارج. الحدودُ بينهما تتلاطم. والشواطئ تتّسع، ضاحية ضاحية.

*

البيوت سلالمُ تتكئ على قاسيون. لن يكون رأسُ هذا الجبل أكثر من خيمة تعلو في ضباب النظر. تمرُّ بها قوافل النجوم.

*

دمشق - المدينة الجالسة في قوسٍ لا تنحني إلاّ بين يدي السماء.

*

زُرْ دمشق خيالياً، لكي تقدر أن تزور واقعها.
تنشّقها أولاً، لكي تعرف كيف تلمسها.

*

دمشق - عبلة الخوري، وخالدة، والقروي العاشق الذي لا يزال يحمل في جسده ذاكرة القبْو الرطب في القصّاع، القبو الذي أمضى فيه بعض سنواته الجامعية،

وبردَى، حيث مَزّق هذا القرويّ أولى رسائل حبّه، ورماها إلى مائه المتدفّق، غيرَ بعيدٍ عن مقهى الهافانا، من على الجسْرِ الذي أسَرَّ إليه أحزانه.

*

مَنْ يقدر أن يكتب لدمشق «نشيدَها»؟

لا الذاكرة، لا الحاضر.

هل أسأل الممكن - الافتراضيّ؟

*

أحببتُ، هذه المرة في دمشق، أن أثرثرَ - أنا المتهمَ بالصمت. أن أُطْلِقَ لساني، كما تشاء الضرورةُ حيناً، وكما تشاء المصادفةُ حيناً آخر. أحببتُ «أن أكون ثرثاراً لا ينضب» كما يقول ديوجين، واصفاً أفلاطون. أن أتحدّثَ مع كل شيء. مع كل شخص - مع بائع القهوة المتجوّل، مع المؤذّن، مع الشرطيّ، عاشق الشّمس والغبار والريح، غصباً عنه. مع امرأةٍ محجّبة، أو نصف محجّبة، أو بلا حجاب. مع بوّابة الجامع الأموي، وساحته، وجدرانه، مع الأعمدة الوثنية الباقية أمامه. مع رأس يوحنا المعمدان. مع قبر معاوية. مع كل شخص. مع كلّ شيء.

*

- ليلٌ: ليس في خزائنهِ غيرُ الكلامِ على تنقّلات الشّهب.

*

- في العرب أنفسهم، يكمن الخطرُ الأول على العرب. وهو ليس مجرّد خطرٍ سياسيّ. إنه خطرٌ مصيري.

*

- يكاد أن يكون للطغيان والعنف والظلم في حياتنا وفكرنا مذاقٌ روحاني.

*

- نتفقّه، ونحسب أننا نفكّر. تحت سقفِ أبوّةٍ نقليّة. في سلسلة نَسَبٍ يَرْتبِط فيها اللاحق بالسابق ارتباط خضوعٍ واقتداء. لا فرادة. بل انصهارٌ في «نَحْنُ» - مجرّدةٍ، وجَرْداء.

- الدين؟ طبعاً. هو، في آنٍ، من الطبيعة وممّا وراءها. الكتابة التي تُغيّب الانغمارَ في الغيب ومشكلاته، تغيّب الطبيعة وما وراءها. ألن تكون إذاً، هي كذلك، مجردة وجرداء؟ ألن تخونَ الغيبَ واللغة والإنسان / ألن تخونَ الطبيعة؟

- ذلك أن الكتابة مسألةٌ تتجاوز مجرد استخدام

الكلام. ليست تصنيفاً، أو تبويباً، أو ترتيباً. إنها مسألة وجود. ومسألة صيرورة. دمٌ ثانٍ. رئةٌ ثانية. وهي لذلك تفجيرُ وعيٍ إضافةً إلى كونها تفجيرَ لغة. تجاوزٌ دائمٌ لحدود الممكن. وهي، وحدها، التي تحوّل الجسدَ - القبرَ إلى جسدٍ - بُرْكان.

دون ذلك. . .

- دون ذلك، لا يُهيمن على المدن العربية غير الذين يقودونها كما تُقاد النعاج. ينذرون حياتهم وأعمالهم وأفكارهم لشيءٍ واحد: صناعة الطغيان. يحصرون همّهم في قتل كل ما هو طبيعي. يحوّلون مدنهم إلى ممالك للقسر، والإكراه، والعنف. ممالك - مقابر.

- هكذا، علينا أن نمارس الكتابة بوصفها فعلاً «جُرْميّاً»: نَقْضاً، وهَدْماً. الكتابة التي تزلزل أسس الطغيان في مختلف أشكاله وتجلّياته، سواءٌ في القيم، أو التقاليد، أو الأعراف، أو العادات، أو المعتقدات - الحجب التي تلتصق على أجساد المدن العربية كمثل طبقات كثيفة من القشور. الكتابة التي تقتلعُ هذه القشور، لكي يظهر النسغُ الحيّ. الكتابة التي يبدو فيها العالم كأنه في حالة دائمة من التكوّن والتجدّد. بلا نهاية.



أكرّر اعترافي لدمشق:

لا أحبّ الكتابة السهلة الهضم، أو التي تُقرأ لتسهيل الهضم. لا أحبّ الكتابة التي تقدّم نفسها بوصفها الدواء. الكتابة «المُنشِّطة»، «المنعشة». لا أحبّ كتابة «المتأدِّبين»، «المصلحين»، «المتصالحين» - أصحاب «الرسالات». لا أحبّ الكتابة - البكاء، والشكوى، والنحيب، والانزواء، ورؤية الذّات منكوبة لا يشغلها إلاّ أن تبرّئ نفسها، وتتّهم الآخرين.

أحبّ، على العكس، الكتابةَ - الطاقة، الكتابة - الفضاء. حيث يتآلف / يتصارع إيقاعُ اللغة، وإيقاعُ الجسد، وإيقاعُ العالم. حيث تَتَمسْرحُ أعضاءُ الجسد في بيت اللغة، وتتمسرح اللغة في بَهْو العالم. الكتابة - المسرح الشامل، حيث تنْعَرِضُ الأشياء والأفكار بتناقضاتها وتمزّقاتها - سواءٌ ما اتصل منها بالأخلاق والقيم العامة، أو بالتاريخ والتراث، أو بالجسد وأهوائه، أو بالفكر وصبواته.

*

قل لي، يا محمد علي الأتاسي،

هل كان قِسمٌ من «الجمهور» الذي حضرَ قراءاتي الشعرية في دمشق، خصوصاً، آتياً لكي يتعرّف عليَّ، لكي

يراني أكثر مما كان آتياً لسماع الشعر؟ هل كان آتياً في المقام الأول لكي يشاهدَ عن كثب ذلك الشخص الذي ضاق به صدرُ «اتحاد الكتّاب العرب» في دمشق، على «رحابته» في الآراء ذاتها التي «طرده» من أجلها؟

(لكن، كانت تَسْنيم حاضرة هي كذلك، في أفقٍ آخر). في كل حال، كان جمهوراً مفاجئاً، لي على الأقل. وكنتُ فيما أستَرقُ النظر إلى كثير من الوجوه الحائرة، أشعر أن أسئلة كثيرة تعتمل في نفسي. وكم وددتُ لو أقدر أن أطرحها عليهم:

أبين هؤلاء الحضور من يحبّ أن يوجّه أسئلة إلى السماء، أو إلى الزمان والمكان، أو إلى الجراح التي لا تشفى، أو إلى الحياة التي تتحوّل أحياناً إلى شكلٍ آخر من أشكال الموت؟

أبينهم مَن يخاف من الحرية، خوفه من السجن؟ مَنْ يخشى الحياةَ خِشْيتَه الموت - فيحيا شِبْه ميتٍ، ويموتُ شِبهَ حيّ؟

أبينهم من يحسّ أنّ الفضاء ضيّقٌ عليه، وأنه يكاد أن يختنق؟

أبينهم من يؤمن حقاً أن الغاية القُصوى هي الإنسان

وحرياته وحقوقه، وأن كل شيء يجب أن يوجّه لكي يخدم هذه الغاية، ولكي يُحقّقها؟

ولعلّي نسيت نفسي في غَمرة هذه الأسئلة. ربما لهذا استرسلت في القراءة، ناسياً كذلك الحضور والوقت، فأرهقت نفسي وأرهقتهم - مُطيلاً القراءة، أنا البخيل فيها حتى التقتير.

عذراً عذراً. للحضور بعامة. لتسنيم بخاصة.



قل لي، يا محمد علي الأتاسي، أيها الصديق الذي يعلو بالصداقة إلى ذُرواتها، لماذا لا يشبع النظر من رؤية سوق الحميدية والأسواق الصغيرة المتفرعة، والمجاورة؟

وأودّ، قبل ذلك، أن أخبرك أنني زرت أمس تكية السلطان سليم. وخُيّل إليّ أنني جلست مع مهندسيها وبنّائيها، نشرب القهوة ونتحدث. وأنهم جميعاً رفضوا أن يَنْضَمَّ إلينا ذلك الشيء الذي أسمّيه السلطان سليم.



جمالُ دمشق؟

سأكتب رسالةً إلى دمشق الأخرى، تسنيم، أرجوها فيها أن تجيب عن هذا السؤال:

«بأيّ سرٍّ، يحوّل الحزنُ أيامكِ إلى حدائق ياسمينٍ، وَوَرْدٍ جوريّ»؟

*

- مَنْ أنتَ، أيّها العابر الذي لا يريد أن يرى في الأسواق الدمشقية القديمة غير البهاء المعماري، وإلا عِطراً يَعْبرُ القارات؟

*

آهِ، أيّها الهبوبُ الغامض الذي يُسمّى الكارثة!

*

وما ليَ، في هذا الهبوب الكارثيّ، أرى أشياء كثيرة في دمشق والمدنِ العربية، إلاّ شيئاً واحداً: هبوبَ الأسئلة وانفجارَ المعنى؟

*

مُدنٌ - لا تُعنى أيٌّ منها إلاّ بأمرٍ واحد: أن يكون «كَبْشُ فداءٍ» حاضراً دائماً، أمام كرسيّها العالي، بين يديها العاليتين.

مدنٌ - لا يَلْتَصِقُ رأسُ أيٍّ منها، بين كتفيها، إلاّ بصمغِ السلطان.

*

نعم، أحلم بالتغيّر. وعندي هاجسٌ دائمٌ: التحول الدائم. غير أنني لا أُشاغِبُ، لا أُثير فِتْنةً، لا أُسَبِّب أذىً. ضدّ العنف، جوهرياً، في مختلف أشكاله. وأعيش في الهامش الاجتماعي - السياسي، لكن في مَتْنِ الحركية الشعرية والفكرية.

*

أنت لا تخيفُ أعداءك بسياستك المخالفة، أو بأفكارك المضادة، وحدها. خوفهم الأعظم هو كونك حراً. هو أنك، في الحرية، مثالٌ وقُدْوة!

*

مدنٌ - هل أسمّيها الـ «هي»؟

الـ «هي»: الصورة الغبارية لماهيّة صوّانية.

*

شَطَحتُ؟ ربما، يا محمد علي الأتاسي.

وآهٍ من سذاجتي وجَهْلي!

كيف لا أرى السماءَ واضعةً ذراعيها على خواصرِ هذه المدن؟

كيف لا أرى التاريخَ مُنْهَمكاً كمثل خيّاط باذخٍ يختار أكرمَ الثياب وأغلاها لقاماتها العالية؟

كيف لا أنظر إليها بوصفها السَّقْف والخبز والماء والغبطة لا لأهلها وحدهم، بل لأبناء آدمَ جميعاً؟

كيف لا أقرّ بأنهنّ توائم حبٍّ ومعرفة، بأنهن وحدةٌ كاملةٌ، بأنّ هذه الوحدة هي البيت الأكثر شموخاً للعلم والفن، لآخر الكشوف والإبداعات؟

كيف لا أرى أنّ رسالةَ انتشالِ الإنسان من الفقر والأمية، من البطالة والعبودية، هي التي توجّه حياة هذه المدن وفكرها؟

آه من سذاجتي وجَهْلي!

حَقاً، كأنني لستُ صالحاً إلاّ لكي أخترقَ و«أُجْرِم»!

وها أنا، إمعاناً في هذا «الإجرام» (ما أَحَبَّهُ، وما أشَفَّ براءته!)، أمتزجُ بتلك القبّة التي تنسجُها خيوطٌ تنسجها رياحٌ تجيء من دمشق الأخرى - من فضاء تسْنيم.

وأنتَ، أيها الياسمينُ الطالعُ في ظِلّ تَسْنيم، وفي شمْس خُطواتها، تَلَطَّفْ وعَرِّجْ على أطلالي.

(باريس، ٣١ تموز ٢٠٠٣)

قمر الرقة
ينام، هذه الليلة، على مخدّة الفرات

تحية إلى عبد السلام العجيلي

- ١ -

كانت الشّمسُ تسقط عموديةً في القلعة. الأشعةُ كمثل أسنَّة الرماح. تُذكِّر بالرماح التي بَنَتها وبتلك التي غزتها. وبدت كأنها تلتهم نفسها، فيما تُشعل كل شيء. وكانت أقبيةُ القلعةِ الراسخة، قلعة جعبر القُشيري، على بحيرة الفرات، هي وحدها التي تعرف البرودة، وتكتنز الظّل في ذلك الحريق الشمسي المُهيمن.

قلعة جعبر: بقايا معمارٍ باذخ يصارع الوقت فيما يعقد معه صلحاً إلى آخر الأزمنة.

واليوم تدخل هذه القلعة مع البحيرة في عناقٍ آخر يحتضن الفضاء. يد الإنسان ويد الطبيعة تُبدعان معاً آلة فذة: السدّ الفراتي من أجل مزيد من الفيض والخصوبة. هكذا تبدو «الآلة» هُنا أختاً، لا لليد وحدها، وإنما كذلك للفكر والروح.

اهبطْ أيّها المساء، عجّل. ضفاف الفرات تتنهّد، والمقهى الذي ينتظرنا بين أحضانها، آخذٌ في التمسرح، وفي بسط تقاليده.

- ٢ -

كنا بدأنا زيارة الرقة بالسلام على عبد السلام العجيلي في بيته، في سرير مرضه. طبيب كاتب يرسِّخ جذور العلاقة بين الطبابة والكتابة في تراثنا.

حقاً، الكتابة طبّ آخر.

- تذكر؟ تعارفنا في دمشق منذ الخمسينات في بيت سيدة جميلة كريمة، كانت تكنّ لك مودّة عالية، وتعتزّ بصداقتك: عبلة الخوري.

بدا، فيما يُصغي إليّ، كأنه ينتشي، محوّلاً سريرَ المرض إلى هيكل أحلام وخواطر. وبدا كأنه يستعيد تلك الأيام الدمشقية البهية. وكان في كل كلمة يتفوّه بها يبدو كأنه يبتكر وجهين: وجهاً لمدينة الرقة، ووجهاً لدمشقية عبلة الخوري. كانت الرقة في تلك اللحظة، فصلاً في الحب، وفصلاً في الذكرى. وخُيّل إليّ كأنه يُمسك بالتاريخ، ويزرعه كما يزرع القمح.

- ٣ -

في طريقنا إلى البحيرة الفراتية وإلى الرقة، زرنا مدينة إيبلا. قرأنا فيها خطوات لسماء هبطت مرّة على ترابها وغابت.

تقول الوثائقُ إنّ صناعةَ النسيج العالية كانت اختصاصها الأول، إضافةً إلى صناعة الخشب المُطعّم بالصدف واللؤلؤ، والخاصة بالأثاث المنزلي. (صناعتان تتواصلان في سورية، لكن بدلاً، على الأقل، من المحافظة على مستواهما الأول، أو تطويرهما في أشكال أكثر تنوّعاً وكمالاً، تتراجعان اليوم وتتجمدان في محاكاة فقيرة وشبه عمياء).

وتوضح الوثائقُ القليلة الناجية من الحريق والخراب، أنّ الفنانين فيها، وبخاصة النحّاتين، كانوا يستخدمون لصنع أعمالهم موادّ متنوّعة: الحجر، والخشب، والعاج، والصدف، والذهب، والفضّة، فيما يؤكد براعة التفنّن، ومهارته.

بين التماثيل الناجية، الأكثر أهمية، تمثالٌ صغير لثور برأس إنسان. لعلّه أن يكون بين النماذج الأولى للفنّ الذي يوحّد بين الإنسان والحيوان، والذي تواصل في الفنّ

اليوناني، وفي الفنّ الروماني، وتأثّرت به المخيّلة العربية. بينها كذلك تماثيل بازلتية صغيرة في معبد عشتار، إضافةً إلى نُصْب عشتار نفسها في شكل هيكل مجنّح.

كان للأنوثة - الألوهة دورٌ مركزيّ في ثقافة إيبلا، وفي المدن السورية القديمة كلّها. كأن هذه المدن كانت ترى أنّ وجه الأنوثة هو، وحده، الذي يجمع بين السماء والأرض، في كينونة واحدة. وكانت تترجم هذه الوحدة في حياتها وفنّها على السواء: السماء للحلم والليل، والأرض للسرير، وللماء الخالق. أما العمل فهو الصديق، الرفيق، الحاضن، المحيط.

إيبلا -
مزيجٌ تتردّد العينُ في تصديقه:
الحجر كوكبٌ،
والبحر صحراء.

- ٤ -

قمرُ الرقة ينام، هذه الليلة، على مخدّة الفرات.

- ٥ -

بحيرة الفرات -
أوبرا حقول وعُمال وأجنحة.

- ٦ -

الطريق بين حلب والرقة ركامٌ ونفايات - على الجانبين. وتبدو أكياس البلاستيك السوداء، البيضاء، كمثل رؤوس بشر تتدلّى من الشجر، ومن النباتات على جانبي الطريق. الهواءُ نفسه يكاد أن يختنقَ فيما يمرّ على الطريق.

لماذا؟ ألأن الطريق ليس ملكاً فردياً؟

ولماذا يغيبُ الحسّ بالمشترك العام الوطني الذي يتخطى حدود الفردية؟ ولماذا يبدو الفرد في سورية كأنه لا ينجح إلاّ إذا فكّر وسلك وعمل كما لو أنه البلاد كلّها؟ ولماذا لا يفكّر ولا يُعنى إلاّ بما ملكت يداه، وإلاّ ببيته وحدوده المباشرة؟ ولماذا يدير ظهره لكل ما عدا ذلك، ولو كان تلّة من النفايات تجثم أمام بيته؟

ولماذا يبدو العام كأنه مجرّد وسيلة للخاص، أو كأنه مجرّد حقيبة في يد الخاص؟

من أين لك هذا، أيها الخاص؟

وأنتَ أيها العام، من أين لك هذا، أيضاً؟

ألهذا نجد في الشمال السوري (وفي الجنوب كذلك) أنواعاً كثيرة من الشمال؟ ألهذا يكاد كل بيت أن يكون وطناً قائماً بذاته؟ ألهذا نرى ملايين الأوطان الخاصة في الوطن

الذي يفترض أن يكون وطن الجميع بالتساوي؟

ألهذا نجد الإنسان أحد اثنين: متبعاً (صالحاً ومحموداً) أو مبتدعاً (طالحاً ومذموماً)؟ في السياسة وفي الدين، في الأدب والفن والفكر، في النظر وفي العمل، في الحياة وفي الموت.

إنه الموت.

كأنّ الموتَ هو الذي يقود الحياة.

سورية، من أين لكِ هذا؟

وقل لي، يا عبد السلام العُجيلي،

لماذا يكون للماء في الرقة

طعمٌ يجيء من رأس الخيمة؟

ولماذا كانت الوحدة العربية، والقوميّة العربية، والاشتراكيّة العربية إكسيراً فريداً شربه السوريون، فازدادوا شتاتاً وتفككاً، وازدادوا فقراً؟

ونضيف: بفضل هذا الإكسير تخلّف التعليم كذلك، وانهارت الثقافة.

- ٧ -

أحياناً،

يجري التاريخُ في جسدك فُراتاً ثانياً.

أحياناً،

تسأل نفسك: هل الحضارة أسراب طيور لا تهاجر إلاّ لكي تقيم، أو لا تقيم إلا لكي تهاجر؟

- ٨ -

العلاقة، فنياً، بالشمال في معظم بلدان العالم تستثير أسئلة كثيرة.

الفن جنوبي. في الجنوب، يتآخى الفقر والبحر، الإنسان والمادة. الجنوب أقرب إلى الحلم، والغضب، والتمرّد.

لكن، قد تكون سورية استثناء. شمالُها فنٌّ وجنوبُها فنٌّ. جنوبُها بيتُ «الروح» التي هي جسدٌ ثانٍ، وشمالها بيت «الجسد» الذي هو روحٌ ثانية.

ماري وإيبلا وصيدا وصور والناصرة «جسمٌ» واحد. وعلى هذا المستوى، ليست هذه المدن من الماضي إلاّ بالمعنى التاريخي. أما بالمعنى الفنّي فهي جزء من الحاضر. وهي معاصرة لنا. ذلك أنّ الفنّ إلى أي عصر انتمى إنما هو، تحديداً، معاصرٌ دائماً.

كان في برنامجنا أن نزورَ كذلك دير الزور والقامشلي والحسكة، وأن نوغلَ في التعرّف على الشمال السوري.

كنت شخصياً أودّ أن أرى إلى الكردي والسرياني والكلداني والأشوري والأزيدي. . . إلخ، مصغياً إليهم كيف ينطقون - كلٌّ بلغته، وتقاليدها. وكنت أشتهي أن أنظرَ إليهم كيف يعيشون معاً في أخوّة كاملة، وفي مواطنيّة عادلة وحرّة، إلى جانب العربي، تحت سماء سورية، يتنوّعون، يتعدّدون، يتلاقون، يتآلفون، من دون أن يذوبَ أحدُهم في الآخر - باسْم اللغة، أو القومية، أو الدّين، وتلك هي سماء سورية: تتلألأ فيها جميع الكواكب، حرّة، ومن دون تمييز.

- ٩ -

ثمة مفاتيح، لا تُستخدم، ويا للأسف، إلاّ لكي تغلق جميع الأبواب.

- ١٠ -

سأظلّ أصفحُ عنكَ، أيها المعتدي، أياً كنتَ، حتّى لو اتّهمتني بأنني أخاف، وبأنني لا أعرف الشجاعة.

- ١١ -

كنا نشعر، فيما نخرج من الرصافة، أننا سننزل درج التاريخ العربي، كمن ينزل في اتجاه الهاوية.

لكن، كنا سعداء في أحضان الرصافة حتى عندما

كانت السماءُ تهمّ أن تقتلعنا من أروقتها، وتعلو بنا لكي تقذفنا في أتونها الشمسي الملتهب.

الرصافة –

نموذج فريد لما تحقّقه الطاقة البشرية الخلاّقة. وربما سيولد فيها التاريخُ من جديد، لا قصداً هذه المرّة، بل مصادفة. للذاكرة فيها أشباحٌ تطوف على رؤوس الأعمدة وبين ما تبقى من الجدران والزوايا. وهي أشباحٌ تغري الطيور المهاجرة، وتجتذب الشهب والرياح اللواقح.

وصحيح أنّ مياه الرصافة نضبت، غير أنّ في حوضها مَنيَّ تاريخ لا ينضب.

الحقول حولها وإن تصحّرت لا تموت. تنتحر دائماً احتجاجاً بطريقة تبقى معها نصف حيّة: تظلّ في نزيف دائم.

والرصافة وثيقة عالية تؤكد على أنّ الخلاسية أو الهجانة بمعناها النبيل موجودة لا في الإنسان وحده، وإنما هي موجودة في الطبيعة، وفي الدين والفلسفة والشّعر والفنّ. والمعبد هنا حجر ورمز على بساطٍ واحد.

- ١٢ -

قلعة سمعان -

صعدنا على السلّم الذي يصعد عليه التاريخ، وتهبط الأنظمة وسياساتها.

قلعة سمعان، الرصافة:

الروح كتابٌ، والمادة تحركاته ونقاطه وفواصله.

كان الأفقُ يكتب، والشمسُ تقرأ، وكنّا الأذنَ التي تُصغي.

كلّ حجرٍ أنشودة. كل جدارٍ لوحة.

وانظروا إلى تلك الغيوم السّابحة في الحجر والتي تسوق التاريخ.

كلاّ، ليس الموت عدوّ الإنسان.

الإنسان هو، وحده، عدو الإنسان.

واهاً منك، وواهاً عليك أيها الفضاء القيد.

كان التاريخُ يتمدّد على الجدران، وعلى وجه التّراب. ورأينا للسماء جذوراً تتغلغل في الحجر والغبار. كان الزمنُ مرهقاً وأحسسنا كأن رأسَه يكاد أن يميل.

أسند رأسك، اتكئ أيها المريض العابر.

- ١٣ -

أكانت هذه البلاد بلادي، حقاً؟

- ١٤ -

سمعنا كلاماً يردّده الصمت.

رأينا فضاء تتطاير فيه أشلاءُ المعنى.

قرأنا جراحنا، وفضضنا أختامها.

تانيا، بديعة، غسان، جهاد، أحمد حافظ، حمود الموسى، إبراهيم الخليل، محمد قجّه، أبو آثار:

يقرأون الفرات، ويحاورون ضفافه.

هل تقولون لي، أيها الأصدقاء، بماذا نُصارح هذه الشمس التي تطاردنا، وبأيّ منديل نمسحُ دموعَ الرصافة وقلعةَ سمعان وإيبلا؟

كيف يحدث لبلاد هي في أساس بناء العالم أن تدير ظهرها له - كأنها تنقرض؟

ولماذا يعجزُ الفردُ ويضيق وينكمش حتى أنه لا يعود يهتم إلاّ بخبزه؟

وكيف يحدث أن ثقافةَ التراث والماضي التي تُشرب يومياً مع الماء، تتحوّل في الممارسة إلى تمجيد للعائلة والطائفة، وإلى دعوة لرياضيات العنف؟

وقولوا كيف يمكن أن يكونَ الفردُ طائراً في بلاد ليست إلاّ قفصاً؟ وكيف يمكن أن يكون أفقاً في وطن ليس إلاّ كهفاً؟ أو كيف يحدث لبلاد ليست إلاّ شمساً، أن تنقلبَ إلى مجرّد مسرحٍ للظل؟

قولوا، أيها الأصدقاء.

(٢٢ أيلول ٢٠٠٥)

- ٢ -

المطرقة السّياسيّة تَدقُّ سندان الحيّ الذي أقيم فيه. حَفْل أصواتٍ - يدخل الحيُّ في طقوسها فاتراً، لامبالياً، ضائعاً في هباء الصّراخ.

أقول في نفسي: متى نعرفُ الصّمتَ؟ وأتساءل: هل تصمتُ الجَنّة؟ هل تصمت النّار؟ أهناكَ من يجرؤ على الفتوى؟

أظنّ أنّ الوقتَ حانَ لكي نقول لجلجامش: أوهمتَ بعضَنا، وأقنعتَ بعضنا الآخر أنّ للحياة في بغداد سِرّاً لا نزال ننتظر أن تكشفه لنا. خصوصاً أنّ كلّ شيءٍ يكاد أن يؤكّدَ أنّ هذه الحياة ليست إلاّ موتاً متواصلاً. وانظرْ إلى سيف الطّاغية كيف يُشْحَذُ وإلى الأعناق كيف تُهيَّأُ لِلضّرب.

تلك الجلسة:

- المسألة عميلٌ صغيرٌ قُتِل كالكلب.
- وكيف يُقتل العميلُ إذا كان كبيراً؟

*

أفهم الآن كيف يمكن أن ينتحرَ عصفورٌ، مذعوراً من بندقيّةٍ تطير وراءه حيثما طار.

*

- هل تعمل؟ كيف تعيش؟

- أتنقّل من شارعٍ إلى شارع. لا تخلو بغداد من المحسنين.

❊

رأسُ هذا الشّارع مَليءٌ بالحكمة.

❊

حمامةٌ - ترسم بجناحيها الأسودين دائرةً حول ضِفّتي دجلة.

❊

تلك الجلسة:

أفرادٌ يناضِلُ كلٌّ منهم لكي يكونَ بَبَّغاء السُّلطةِ، الأكثرَ فصاحةً.

❊

بغدادُ كلّها دخانٌ

لكن، أين هي النّار؟

❊

كلّما ازددتُ إيغالاً في طفولاتِ بغداد، ازددتُ معرفةً بنفسي وبالآخرين، وبالكون،

وازددتُ نُفوراً من حاضرها.

❊

- «لا قرابةَ لي، خارجَ سلالة الرّيح»:
قال لي عراقيّ جاء إلى الفندق ليتعرّف عليّ.

*

لِلمّرة الأولى، عرفتُ أنّ الضفّةَ اليُسرى مِن دجلةَ،
ذئبةٌ على أختها اليُمنى،
وأنّ هذه ذئبةٌ على تلك.

*

الآن، في هذه اللحظة، يُخيّل إليّ أنني لا أرى في بغداد إلاّ شخصين:
الحلاّج مصلوباً،
والتّوحيدي يطرحُ كتبه إلى ماء دجلة.

*

تبتكرُ بغداد رجلاً خاصّاً بها: رجلاً - مَقْهى.

*

عشتارُ مريضةٌ تُرْهِقُها حُمَّى المتنبّي.

*

يكادُ ماءُ دجلةَ أن يَفرَّ من ضِفّتيه.

*

جلجامش! أيّها الابنُ الأوّل - بِكْرُ الأسطورة،
هل سيظلّ شعرك أرضاً للهجرة؟

هل اللاّرجوعُ هو الوطنِ؟
والصَّداقَةُ - من يُغنّيها بَعدك؟

*

هنا، تُضيّع الحياة وقتَها في ترصّد الموت.

*

هندسة رجالٍ ونساءٍ
تُروِّجُ لطواحين الهواء.

*

مَا للشمس في بغداد، تطلعُ كلَّ يومٍ،
حاملةً بين يَديْها طِفْلاً أعمى؟

*

ليس للحريّة إلاّ تمثالٌ واحد: الحرّية.

*

أكاد أشكّ أنّ أبا نُواسٍ، وأبَا تَمّامٍ، والنّفّري عاشوا في بغداد.

*

الجِنُّ في بغداد هم، وحدهم، الجائعون، المتسوّلون، العاطلون عن العمل، المسجونون... إلخ.

*

هنا، أتأكّد أنّ للحاكم عَقْلاً منذوراً لتأليف الموسوعات الخاصّة بِاصطياد البَشر وتَرْويضهِم.

❊

دجلة! أعرف لو أنّ الثورة مركبٌ لكنتَ أوّلَ من يحطّم أشرعته.

ماضياً، كان يسكن على ضِفّتيكَ بشرٌ لا يؤمنون بالوحدانيّة، وكانوا مع ذلك أكثرَ إبداعاً وإنسانيّة من أَحفادِهم الموحِّدين الذين يُحاصرونك اليوم.

❊

استَيْقظْتُ من نومي اليوم كأنّي شَهقةٌ طالعةٌ مِن جسد الشّمس:

أكيدٌ - كانت هِيَ التي وضعت وردةً في نافذة غرفتي، وسَبقتِ الشّمسَ عائدةً إلى بيتها.

❊

تلك الجلسة -

كلّ متكلّم يزعم أَنّه ينطق بالحقّ. أنّه يقول الكلمةَ الأخيرة الفاصلة.

كلّ شاعرٍ يريد أن يقالَ له: أنت الأوّل والآخِر.

زَبدٌ يتلاطَمُ ويأكلُ بعضه بعضاً.

❊

صديقي جيم يسكن في ما يشبه قَصْراً. قال لي: أكثر سُهولةً أن يتهدّمَ هذا البيت من أن أفتح فيه نافذةً واحدةً من النّوافذ التي تُشير إليها.

*

ما أثقلَ النّهارَ في بغداد. لولا ليلها لكانت سجناً.

- مع نزار قبّاني. معك؟ نعم، نأتي. أينما شئتما. متى شئتما.

كانت تتحدّث، بشجاعةٍ واثقة. وكانت رفيقتها تُصغي إليها، وفي عينيها يسبحُ غَزَالان طائران.

- ولماذا هذا الحجاب؟

- حجاب العودة إلى البيت. خصوصاً في اللّيل. التّقاليد سجنٌ داخلَ السّجن.

- ...

غابتا، لكن كما يغيبُ كوكبان.

كانت الشّمس تصعد على دَرَج دجلة.

كان النّهار يتهيأ لكي يلبس بَزَّته العسكرّية.

وكان اللّيل قد رمَى سهمه، وأَصابَ.

*

الكَرْخ - رأيت سومر وبابل كمثل جَناحين - خيطين بين مشرق الشّمس ومغربها. رأيتُ ما يشبه الموجةَ التي كانت تستقبِل عشتار كلّما وضعت قدميها في ماء دجلة. رأيت عشتارَ نفسَها كأنّها تَتهيّأ لحبٍّ آخر. أوهكذا شُبِّهَ لي.

*

- ٣ -

سوق الصّفافير - فتياتٌ وشُبّانٌ تبدو أجسادهم تاريخاً طويلاً من اللّيل. وفي النّهار صَدأٌ يكادُ أن يلتصقَ بجسد الوقت.

مجاريرُ تسيلُ في الهواء الطَّلق، أمام المتاجر. روائح كريهةٌ تَنْهَبُ الفضاء.

*

ماذا أسمع؟ أهي جدران بيوتٍ قديمةٍ توشوشني: لم يَبْقَ لي ما يحرسني غيرُ الذّكرى؟ أم تُراني أتوهّم؟

*

لماذا لا أرسم وجه بغدادَ على عتبةِ الشّكّ؟
ليس لماء دجلةَ أن يقول: لا.
ليس لأعناقِ النّخيل أن تُصبح أكثر انحناءً مِمّا هي.
رسْمٌ لذاته، لِوجه الرَّسْم.

أَتجادَلُ مع ماءٍ لا يتذكّر إلاّ مصادرَ الدّماء التي سالت فيه. ماءٌ يعجن خميرةَ الدّمع.

كأنني أرى الموتَ رابِضاً يَتصيَّدُ البشَر.

*

أحبّ، هذه اللّحظة، أن أقول: بغداد - نصفُها غابَةٌ، ونصفها الآخَرُ صحراء.

وأحبّ أن أسألكَ، يا صديقي - هَمْساً:

- ما الفرقُ بين بغداد ١٢٥٨، وبغداد ١٩٦٩؟

- الأولى فتكَ بها التّتار،

والثانية يفتك بها أبناؤها.

*

- ٤ -

مَقْهى - نراجيلُ كمثل عقودٍ تتدلّى من أشجارٍ لا تنبتُ إلاّ في أرضَ المخيّلة.

شيخٌ يتنفّس برئة الطّفولة. آخرُ يتأوّه ويتلعثم. كأنّه لا يقدرُ أن يصف النّار التي تَتأجَّجُ في أحشائه. كأنّه لا يعرف كيف يطردُ العذابَ الذي سَبَّبهُ له أبوه آدم.

من المقهى يخرج دخانٌ أسود - أهو أَنْفاس المتكّئين على نراجيلهم؟ أهو حلمٌ آخر بسقفٍ آخر؟ أهو بلادٌ ثانية؟

تتصاعد في الدّخان زفرات وتمتمات، كمثل جسورٍ عائمةٍ بين الوقائع والذّكريات: لا وضوحَ، لا غموض. شِبَاكٌ من الحروف تضطرب فيها أجنحة الظنّ.

في كلّ «نعم» تكمن «لا».

في كلّ «لا» تكمن جمرةٌ لا تعرف كيف تنطفئ.

تحت بَشَرةِ هذا المقهى، تتموّج محيطاتٌ من الرَّفض.

*

مكتبة - خَطُّ هذا الكاتبِ أعوجُ، لكنّ كلماته مستقيمة.

- هذا كاتبٌ يكرِّر.

- أحياناً يُقال الشّبيهُ لكي يُقالَ المختلف.

- شاعِرٌ كمثل الملاك.

- أمدحٌ أو ذَمّ؟ يقدر الملاكُ أن يفعل الخيرَ والشّر. لا يقدر الشيطان أن يفعلَ إلاّ الشّر. أيهما الأكثر نقاءً؟

- هذا شاعرٌ غامض.

- ما ينكشف سريعاً، يُبتذَلُ سريعاً.

- الشعر؟ لا أعرف.

كريمٌ كمثل الفضاء. يَحتضن حَتّى الطّيورَ التي تتمرّد عليه.

- يبدو كلّ شخصٍ هنا، كأنّه نخلةٌ تعيش على شَفَا جُرفٍ هارٍ من الكآبة. كمثل حسب الشيخ جعفر.

- هل رأيتَ شعباً يحتاج إلى الظّلم لكي يشعر أَنّه موجود؟

- شعب العراق؟

- لكن، ما يكون قائِدٌ يتسّلق الخطط التي يرسمها على جبلٍ من رؤوس البشر؟

- الغد؟

- لا تنسَ. تَحدّثْ هَمْساً. الغدُ غُضْروفٌ قلِقٌ في جناح وطواط.

- اغفروا له هذيانه.

- لستُ رجلَ انضواءٍ أو التزام. أتعلّم كيف أكون رجلَ حرّية. وأنتمي إلى وَعيٍ شقيٍّ، غاضبٍ وخائب. مثلك.

- خيرٌ أن نتحدّث عن المرأة، عن الجمال. في بغدادَ نساءٌ لا يعرف الوقت أن ينتشي حَقّاً إلاّ بِهنّ.

- وبأمثالهنّ.

- أكرّر: لِنتحدَّثْ همساً.

- رجالٌ يخنقون الهواء.

– ٥ –

امرأةٌ تُعانِق شُبّاكاً في بيتٍ على ضفّة دجلة. امرأةٌ مضيئةٌ تخاف من الضّوء.

دجلة كمثل جسدٍ تجرّه عربةٌ يجرّها الخوف.

دجلة نشيد لقاءٍ قَلّما يصغي إليه أحد.

– ماذا تعمل، ماذا تخترع؟

– أُذُنيْنِ لعتبة البيت.

ولم نعد في حاجةٍ إلى التّفكير. هناك من يُغنينا عنه: يعرف كلّ شيءٍ، ويجيب عن كلّ شيء.

وكلّ شيءٍ يتحوّل في كيمياء السّياسة:

أيّة امرأةٍ تريدين أن تكوني، أيتّها اليمامة؟

أيّ رجلٍ تريد أن تكونَ أيّها الهدهد؟

ما الدّورُ الذي تريد أن تلعبه، أنتَ أيّها الحجر، وأنتَ أيّها القفل؟

مُنَاخٌ يُثلج ألفاظاً،

والسّمّ يهدرُ في عروق اللّغة.

*

لماذا ليس لبغداد إلاّ طريقٌ واحدة،

والطّرقُ أكثرُ من أن تُحْصى؟

*

تبدو بغداد قَفصاً من ألفاظٍ، لا يكاد الإنسان يخرج حتّى تنفتحَ كمثل أشداقٍ وحشيّةٍ تُطْبِقُ عليه.

*

كأنَّ العقلَ لم يعد إلاّ حَبْلاً حول العنق.

*

أيّامٌ تنتشي لرؤية الألوان الحمراء،
دون أن نَسْتثنيَ لونَ الدّم.

*

وقتٌ كمثل جَسدٍ بأعضاءَ يلتهم بعضُها بعضاً.

*

إنّها الشّمس تَتشحَّطُ في الشوارع.

*

أبو حنيفة، الشّافعي، مالك، ابن حَنْبَل - أُعطيَ كلٌّ منهم شُقَةً في السّماء، هَرَباً من هذا العالم. ويُقالُ: كلٌّ منهم نذرَ خلوده في هذه الشقّة الفردوسيّة لتأليف الكتب في ذَمّ الدّنيا، وفي طاعةِ «أولي الأمر».

وما هذه العباءَةُ اللاّزورديّة التي تغمر الحضرةَ القادريّةَ الكيلانيّة؟

*

- بغداد جَنّة!

- الإنسان هو الجنّة، لا المكان.

*

- هل تريد البقاءَ هنا؟

إذاً، ضَعْ مكانَ سُرّتكَ سُرّةً أُخرى، وغيّر رأسَك.

*

أَثيرُ آلاتٍ يملأ الفضاء.

في علم الهيئة الذي يبثّه هذا الأثير، أنّ بغدادَ أُمٌّ تنعقد في حوضها الأَجِنّة، وأنّ الجنينَ يخرجُ مُصليّاً لِلمُهيْمِن الغالب.

وفي علم الهيئة أَنّ الثّوبَ الذي يلامس جسدَ الجنين، للمّرة الأولى، يُخاط بيدِ المهيمن الغالب.

وفي علم الهيئة أنّ بغداد بيتٌ لِنَمْلِ الفجيعة، وأَنني خالفْتُ وانتبذت.

*

هل كانَ عليَّ أن أرفض الواقع، وأمضيَ وقتي كلّه مع الممكن؟

هل كان عليّ أن أجهرَ: لكلّ صوتٍ في بغدادَ مهمازٌ؟

*

أثيرُ آلاتٍ يغمر الفضاء -

يتخلّل جميع أجزائه،
وأسمع من يُعلّل به الوقتَ والفراغَ والسّلطةَ والجُثث،
والمستقبل.
هكذا تتَنضَّدُ الجهاتُ والآفاقُ، وفقاً لضوءٍ آخر:
البلاد من الآن فصاعداً،
سَهْمٌ قوسهُ كرسيّ السُّلطان.

*

طيورٌ - جِراحٌ في الشَّجر،
وتلك الوردة التي كانت وَتراً من العِطر
بين مشرق الشّمس ومغربها،
عنقٌ ينحني، وأهدابٌ تنكسر.
ولا بَرْقَ إلاّ الخُلّب.

*

ثَمّة عطَشٌ يطوي الجسدَ طيَّ الورق،
وتبدو كلُّ لحظةٍ،
كأنّها قُمقمٌ تندلق منه أحشاء التّاريخ.

- ٦ -

مُتكّئاً على طرف السّرير في الفندق (نسيت اسمه)،
أسمع دَقّاتِ ساعة غامضة،

كأنَّها تتدلّى من عنق نخلةٍ تكاد أن تيبس.

الساعة الثانية عشرة، ليلاً.

ليلٌ يسهر بين يدي دجلة. أكادُ أن أسمعَ الماءَ يَسعلُ، والضفاف تبكي. أحذّركِ أيتّها اللّيلةُ من ظُلماتي. وأنتِ، أَيتّها المدن الفراتيّة النائمة، سلاماً.

فوق طَبقِ الأحداث، أرمي نَرْديَ الحائر. أنتظر، أتأمّل، أكتشف أَنّ للأحداث نَرْدَها الغالب.

ماذا أفعل؟ هل أستسلم؟ هل أظلّ أدحرجُ السّؤالَ كمثل صخرةٍ تكاد أن ترتدَّ عليّ، وأن ترتميَ فوقي؟

وأنتَ يَا رأسي - قُل لي من أين لكَ هذا العَصْفُ الذي فيك، والذي لا يُريد أن يَهْدأ؟

- ٧ -

يضعُ الشعر شفتيه على ثدي بغداد...

خرجتُ منها وأنا أتخيّل أنّ المدنَ تأخذُ أحياناً حُلمَ التغيّر، وتُدخله إلى بيوتاتِها، خِفْيةً، كأنّه عشيقٌ سِرّي. وتذكرتُ أنني لم أرَ الكلمات تجلس حول الموائد لِتأكلَ هي كذلك، كما رأيتُها في بغداد. تزدردُ كلّ شيء. اللّحم والدّهن والعظم. الذين ولدوا، والذين ماتوا، والذين لم يولدوا بعد.

وكنت رأيت كيف يحدث أن تتحوّل اللّغة إلى جيشٍ هائلٍ من الحيوانات المفترسة. وكنت حتى تلك اللّحظة من السّنة ١٩٦٩، أتعبُ كثيراً في التّمييز بين البشر والشياطين والآلهة، عندما أنظر إلى «أهل السّلطة في العراق». ربّما لهذا لم أشعر في بغداد إلاّ بالبرد حتماً وأنا في حضن الشّمس.

لكن، لكن،
ضَعْ، أيّها الشعر شفتيكَ على ثَدْي بغداد.

(بيروت، ١٩٦٩)

(*) في السنة ١٩٦٩، ذهبتُ إلى بغداد عضواً في وفدٍ لاتّحاد الكتّاب اللبنانيين يَرْئِسهُ سهيل إدريس لحضور مؤتمرٍ لاتّحاد الكتّاب العرب. كان نزار قباني بين أعضاء الوفد. بقيت فيها بضعة أيّام، دون أن أشاركَ في نشاط الوفد أو في أعمال المؤتمر، لأسبابٍ أودّ أن أحتفظَ بها لنفسي.
وتلك هي زيارتي الوحيدة.
الخواطر التي أنشرها اليوم كُتبت في أثناء هذه الزّيارة، وهي تُنشر، مع بعض التعديلات، للمرة الأولى. ودفعاً لتأويلاتٍ يتعشّقها بعضهم، أشير إلى أن هذه الخواطر ليست بالطبع حكماً على الشعب العراقي بوصفه كلاًّ، وإنما تنهض على انطباعاتٍ عن السّلطة وأهلها، وعن «المناخ» الثقافي والسياسيّ الذي كان يؤسس له الدائرون في فلكها وأفلاكهم في تلك المرحلة.

إذاً، أنت في القرية

- ١ -

حين خرج، حاملاً فأسه كان واثقاً أنّ الشمس تنتظره تحت ظل زيتونة، أو سنديانة، وأن القمر حين يعبر، هذا المساء، فوق بيته، سيسلك الطريق الأقرب إلى خطواته. لذلك لم يكن يهمه أين تذهب الريح.

- ٢ -

زرقة السّماء، حمرة الثمار، خضرة الورق: تلك هي الألوان التي تفرشها يداه فوق صفحة النهار.

فَنّانٌ يُعنى بعمل يديه، لا بما تعمله يَدُ الفنّ. والأشياء هي الأشياء، لا كما هي أو كما يراها، بل كما يصفها. وهو يعرف أن يصغي إليها، لذلك يعرف أن يتحدث معها. يعيش على هامش ما يجري، وفي الأشياء التي يحادثها أو يعايشها، نستطيع أن نرى كيف «يتهدم النظام الذي يسجن الحركة، ويقمع أعياد الخيال».

. . . يتهدم، دون استعراض، وبلا ضجيج. يعرف أن «الرصاصة تحلّ محلَّ فأسِهِ»، لكنه يُدرك بيقين متزايدٍ، أنّ

«فأسه تذهب إلى أبعد ممّا تذهب الرصاصة وأنّها تصل إلى أعمق مما تصل».

- ٣ -

حين ترى هذا الفلاح حاملاً فأسه، تشعر أنه في تنافسٍ معها يشبه الحرب، ذلك أنّها تسبقه دائماً إلى الشوك. خصوصاً أنّه يظلّ حافياً، وأنّ صوتها، وهي تقتلع الشوك ينضمّ إليها. وما أجمل أن تصغي إليه يعلو كأنه مزمارٌ، تزيّنه بُحّةٌ عميقة تملأ الفضاء.

- ٤ -

إذاً، أنت في الرّيف. لا يهمّ أين تسير الآن، قرب النّهر، أو في سفح جبل، أو في قرية ضائعة بين الصخر والصخر، تمتزج فيها بيوت الطين بأقبيةِ الإسمنت في سنفونية فولكلور توحّد بين القرن العاشر والقرن العشرين.

اتركْ لعينيك أن تسبحا في ما حولهما، وانْسَ المقهى والشَّارع. استسلمْ: كورقةٍ تتطاير في الهواء، كزغب الغصون، كغبار الطلع / كن طفلاً. آنذاك، تُقْبِلُ إليك كائناتٌ غير مرئية: الوَحْدة، لكن تلك التي تكتنز بالهدير المخبوء. الغياب، لكن الذي يتحوّل في أقلَّ من لحظةٍ إلى حضور. وكلّ شجرةٍ شخصٌ، وكلّ حَجرٍ إشارة.

وثمة قطعان من الحيوانات الصغيرة التي تلمع كأنّها نجومٌ بعيدة، بين الأعشاب والنباتات. وثمّةَ صخورٌ لها رؤوسٌ وسواعد، وربما سارت وراءك في أواخر اللّيل. وثمّة جداولُ صغيرة تتمرأى فيها شجيرات تنقلب أحياناً إلى عرائسَ تكمن للأشخاص الذين يعودون إلى بيوتهم، متعبين، قبيل الفجر، في أوائل السَّحَر.

- ٥ -

ليست القرية شاعرةً، بقدر ما هي رَسّامة. وفي رسمها يُسْرٌ عجيبٌ هو أنها تكرّر اللوحةَ نفسها، كلَّ يوم إلى ما لا نهاية، وتبقى هذه اللّوحة جميلةً. ذلك أنه التكرار الذي لا يكرّر الحركة، بل ذاتَه كتموّج البحر. كما تتنوَّع الصحراء وتَتَجدّد بثوبِهَا الوحيد: الرمل.

ولا ذاتيّةَ في رسمها. كأنما هي حيادٌ مطلق. كأنّها واقفة أبداً، في درجة الصفر.

- ٦ -

إذاً، أنت في القرية؟

أذكر، الآن، ما أكاد أن أنساه: ما من أحد في القرية يعاكس الضّوء، سواء اختارَ العزلة، أي الجلوس في الطرف الآخر من الجبل، أو اختار الجلوس في الساحة، مع

الأطفال الحفاة والماعز الأسود.

وأذكر، الآن: كنا ننظر إلى النبع تغطّيه أعشاب خضراء، حتى لا نكاد نتبيّن مجراه. وكنّا نظن أنه يتألم وينتحب.

وأعرف الآن، لماذا كنّا نيبس في ذاكرة النبع.

... وتلك الأيام التي قرأتها في غبار الطريق الذي كان يقودني إليه، قرأتُ معها ما كنّا نعرفه ونجهل أن نكتبه:

سلاماً للشمس التي تسبقنا دائماً، دون أن تتحرك.

(١٩٧٦)

كيس الصَّعْتر

تنقل من رأس الجبل كيسَ الصعتر، وتفرشه أمامها. كانت الشّمس قد نسيت على وجهها شيئاً من دمها، ونسيت خطواتها وهي تهبط نحو الغروب. وكان اللّيل قد غطَّى رأسها بشعره الطويل، وجلس طويلاً بين نهديها.

إلى جوارها طفلٌ ليس أبيض ولا أسمر. لونه ترابٌ، وجسده يتماسك ذَرّاتٍ ذَرّاتٍ كأنه هو أيضاً تراب. قدمه اليسرى مغطّاةٌ بالوحل، وقدمه اليمنى ملفوفةٌ بقماشة سوداء.

كان يتمدّد، بين ركبتها والرصيف، وديعاً يذكر بوداعة الملاك، التي تتحدث عنها الكتب.

فجأةً، أخذت المرأة القروية تحدّق شبهَ ضائعة في أقدام المارّة. وبدت، حين رفعَت يديها، أخيراً، في اتجاه الفضاء، كأنّها تمسك بخنجرٍ تَغرزَهُ في صَدْر الأفق الصغير الضيق أمامها. ثم نهضت.

حملت كيسَها. لَفَّت حول خاصرتها زُنَّارها الأحمر، وسارت يتدلَّى منه ابنُها، كأنّه خنجرٌ آخر.

منديل

عندما أخذت الشّمس تقترب من عتبة الغروب، كان الفلاحون الذين لا يزالون عصاةً على المدينة، قد انتهوا من نَسْج نهارهم. اختاروا له، ذلك اليوم، شكل المنديل. زركشوه بأحلام يظنون أنها ستزورهم في اللّيل، وصنعوا من تعب النّهار تخاريم هذّبوا بها أطرافه. لحظةَ خُيِّلَ إليهم أنّ الشّمس بدأت تُبلِّل قدميها بماء البحر (البحر، بالنسبة إليهم، هو السرير الذي تنام فيه الشّمس، والجبل هو السرير الذي تستيقظ منه)، ألقوا هذا المنديل على رأسها وكتفيها، وأووا إلى بيوتهم. في ضوء القنديل، يمضي كل منهم فترة من اللّيل، يفكر كيف يشارك في نَسْجِ منديل جديد للشمس، في زيارتها المقبلة.

بئر

تبدو لي البئرُ التي تمدّ بيتنا بالماء وتسقي الحقل الذي يُحيط به، كأنّها سماءٌ تحت الأرض. غير أنّها سماء تؤثر ألاّ تلبس إلاّ الغيم الذي يحمل الماء، وتفضّل أن تُطِلَّ دائماً من وراء حجاب.

أحياناً، تحاول شجرة الصفصاف الباكية أن تنزل في البئر خِفْيةً، لكي لا تثير غيرة الأشجار الأخرى. سمعتها مرة تدافع عن هذه الخِفْية، محتجّة بأنها لا تقدر أن تستيقظ تماماً إلاّ إذا غمر الماء كاحليها. احتجّت أيضاً بأنها خلقت للبكاء. الماء هو، وحده، الذي يبكيها. البكاء سرّ وجودها، وهو الذي يسوّغ حياتها.

ربّما مهدّت لذلك بأن ترسل أغصانها لكي تستطلعَ الطّريق. وربّما ذرفت دُموعها في شكل ورق موشّح بالشحوبِ، كأنّه وجه امرأة عاشقة. بلى، لهذه البئر وجه لا تعرف أن تزينه بشامة الجمال أَيَّة يدٍ، مهما كانت بارعة، كمثل ما تفعل يدا صفصافةٍ باكية.

يقظة

في القرية، أستيقظ دائماً، قبل الشّمس لكي أُحسن النظرَ إلى الخطوات الأولى التي يرسمها الصباح على سلّم الفضاء. لكي أُحسن النظر كذلك إلى يقظة الأشكال على المسرح الذي يحيط بي. وهي أشكال تتغير تبعاً لتغير الضّوء والظّل. لكلّ شجرة، لكلّ نبتة، لكلّ حجر خزانةٌ ملأى بالثياب التي تخلعها أو تلبسها، وفقاً لما تُمليه رغبة ذلك الخيّاط الجميل اليدين، الساحر الوجه، الواضع خدّاً في الظّل وخدّاً في الضّوء والذي يُسمَّى المكان.

إنها لحظة تجعلني أشعر أنّ حركة الأشياء هي التي تكتب العالم بحبرٍ ليس إلاّ دم الوقت.

وإذْ تتوالى اليقظة، ويتوالى النظر، يغمرني الشعور بأنّ الشكل هو الحاضر الدائم على هذا المسرح، وبأنّ المعنى هو الغالب الدائم.

بريد

نقل إليه البريد، هذا الصباح، رسالة منها:

«(. . .) لشجر الخريف رائحة غريبة. ينبعث منها صباحاً ضوء تستطيع أن ترى سفينة اللّيل تترنح جانحةً على ضفافه.

ينبعث منها، ليلاً، غسقٌ تستطيع أن ترى سفينة الفجر جانحة على ضفافه. كيف تكون الرائحة سراً وقبراً في آن؟

لا أسأل لكي أسمع جواباً. أسأل لكي أعرف كيف أختار لجسدي جنةً على ضفاف أيامك».



رسالة ثانية منها:

« . . . ظننت أنّ ملاكاً هبط على شجرة التين، التي تعرفها وتحبها، عندما رأيتها هذا الصباح: كانت كمثل جسد تتدلّى منه آلاف الأثداء.

لمست ثدييَّ.

(. . .) ربّما، بعد جسدكَ، لن يكون لي شيء في هذه الحياة. لكن، ليس لي، بعده، أن أخسر أيّ شيء».



أعدتُ هذا الصّباح قراءة هاتين الرّسالتين. حاولت أن أمسح بهما وجه البيت الذي بدا لي شاحباً.

كانت الشّمس تعرّش على النوافذ، فيما تعانق الشجر والنباتات. كان وجهها كوجه طفلة تكاد أن تراهق. وكانت قدماها خفيفتين كأنهما جناحا فراشةٍ.

نهضتُ. اغترفتُ حفنة من أشعّتها وغسلت بها عيني. فجأةً، سمعت صوت طائر أكّد لي بعضهم أنه انقرض. رأيته كذلك، كان يقف أمام وكْر، وينظر بحذر. يطمئن. يدخل الوكْر. وكْرٌ مظلّل. ولم تكن شجرة الإزردخت، وحدها، هي التي تفرش حوله أغصانها كمثل أذرعٍ حانية. ولم يكن ندى اللّيل بعدُ قد جفَّ. غَنِّ، لا تخفْ، أيّها الطائر الضيف.

*

غيومٌ في النوافذ، على العتبة، وبين الشجر. أسرعي، أيتّها الرّيح، وفُضِّي رسائل هذه الغيوم.

(٢١ أيلول ١٩٩٥)

مُعْجم

الوردة

عرّيتُ النافذة من ثيابها. في زاويتها اليُسرى وردةٌ تكاد أن تذبلَ في أصيصها الضيّق العنق، كمثل الخاتم. وكان الفضاء الذي يواجه النافذة عارياً.

دخلت خيوط الشّمس. غمرت الوردة بأشعّتها فبدت أشدّ ذبولاً، وصار لها ظلّ ناحل.

تمنّيت، مع ذلك، لو أقدر
أن أجلس قليلاً في هذا الظّل.

وسائد

مَدَّ لي الأفق يديه.
كانتا، قبل ذلك، تداعبان غيمةً تبدو على وجه الشّمس
كأنّها جدائل امرأة.
حرّكتُ وسائدَ ترقد عليها أشيائي الماضية،
وأيقظتُ جسد اللّحظة.

خرقة

أَسيرُ لا أجدُ ما أتمسك به إلاّ أيديَ
لا أكادُ أن أراها،
تتطاير أوراقُ الوقت، فيما كنت أتساءل
لماذا، إذاً، لا أنتهي من قراءتها؟

على عتبة المقهى، في أول الشّارع، كان الشعر يذهبُ
ويجيء في شكل عرّاف،
في نهارٍ كمثل خرقةٍ تبلّلت بماء موحل.

عَزْف

لا شيء لا شيء، - ريحٌ خفيفة تعزف على قيثار الشجر.
لا شيء، لا شيء.
فراغ، هيهات للكلام أن يملأه.

واحلمْ، احلمْ
ليس الحلم إلاّ حقيقة في سنّ الرضاعة.
واسأل نفسكَ، لا تسألني
ليس هناك أفقٌ مسدود إلاّ في عقلك.
لكن، من المؤكد تقريباً
أنّ القصيدة تنهض سِحرياً كمثل بيتٍ يتدّلى في الفضاء.

يسكن هذا البيت مهاجر اسمه المعنى.

حركة

أسافر خارج نفسي، وفي داخلي قارات
لا أعرفها.
جسدي في حركةٍ دائمة خارج جسدي.
لا أسأل: من أين؟ وأين كنت؟ أسأل أين أمضي؟
ينظر إليّ الرمل فيسوّيني رملاً،
وينظر إليَّ الماء فيؤاخيني.

حقاً، ليس للغسق إلاّ الذاكرة.

علو

ثلج يكتب الأرض. يكتب شعوباً فتنت بالبكاء.
هوذا أرى، في طريقها،
كيف تتبخر البحيرة التي نسمّيها المستقبل.
مع ذلك،
لن أصغي إليكَ، أيّها الزمن،
لا أستطيع أن أهبط،
العلو سيد على أيامي.

ثلجٌ -
كم هو بريء ثلجُ الفراشة: لا يثق إلاّ بلحظة النّار.

حوار

- أفكارَكَ غيومٌ. سفنٌ عائمةٌ لا مرافئ لها. هل تستطيع أن تدلّني على شاطئٍ واحد؟

- لكن، هل تجد كلاماً واضحاً عن غموض الحياة، إلاّ في الغيم؟

- ألهذا، كلّما طرحت سؤالاً على الغيم، يجيبني:

لم يعد لدي شيء أقوله.

صديق

قال لي: ربيت على صداقة السّماء. اليوم أكتشف أنني لا أستطيع أن أجادلها أو أن أحاورها في أي شيء. ما جدوى هذه الصداقة، إذاً؟

- إِلعبْ. لا تتوقَّف عن اللّعب. اللَّعِبُ أَوّل السّماء.

امرأة

- قلبي مليءٌ بالعشاق، غير أَنّهم جميعاً موتى.

- ربما لهذا، أصدّق فيكِ الغيم وأكذّب الشّمس.

المعنى

ولدت في مهدٍ لا أجدُ اسماً يليق به غير الجرح. هكذا قيدت سفني بالرياح، وفوّضت أمري إلى اللّجّ.
تخيّلتُ مّرةً
أنني أجمع دموع النوارس، وأسكبها في جرار الأمواج.
كيف تسألني إذاً عن حياتي، أيّها الزمن، يا ثعبان المعنى؟

لحظات

صباحاً - عتبةٌ لا تملّ من استضافة الأقدام التائهة. شجرةُ سَرْوٍ تحكّ رأسها بمناقير الطيور. غيومٌ تنزلُ درجةً درجةً على سلّم الهواء.
صباحاً - ما أجمل عدوان ذاكرتي عليَّ: تأخذ مني الحبر وتعطيني النسيان.
صباحاً - أخذ طائر الكلام يغرّد على غصن آخر.
مساءً - زغب ينبت بين فخذي اللّيل.

العتمة

قالت: الجسد أوّل المعنى. وأخذت تجدل من تعبي ضفائر تلقيها على كتفيها. كانت تردد باستمرار: جربت أن أخرجَ من جسدي، فأنكرتني الروح.

وكانت، كلّما التقينا، تقول: أستطيع الآن أن أسقيَ شجرة طفولتي بماء عينيّ.

تلك المرأة –
باسمها تركض الآن في مخيلتي غرف وأسّرة وأمكنة،
وتكاد أن تتقلَّب في فراشي.
هكذا أقول لثلج الذكرى:
علَّمتُ جسدي أن يكون لهباً.

اسمها

مثلها. لم أعرف من السماوات إلاّ تلك التي لا تفارق الأرض.

وباسمها أتساءل: كيف تصبح هذه الحروف الثلاثة - جيم سين دال أكبر من الأبجدية وأكثر اتساعاً؟

وأقول: لا مكان يتعانق فيه الداخل والخارج، اللّيل والنهار، في موجة واحدة، إلاّ الجسد.

الآن، باسمها، أتعلم كيف أترك أحزاني تسيل في الينابيع، وكيف أقرأ شعر السفن التي تدير ظهرها لرياضيّات الموج.

مثلها. أترك لاسميَ أن يكون برعماً في وردة الحب، وأسأل: ما هذه النهاية التي لا تلامس شيئاً إلاّ حولته إلا لانهاية؟

يقين

دائماً، يدعوني الحلم إلى بيته، ودائماً أقول له: ليذهب إلى مكان آخر.

أكيدٌ، سيتعب الرمل عاجلاً من التزلّج على خواصر أيامي - مع أنها تؤكد:

«لم أجد حتى الآن مكاناً أطمئن إليه،

أجمل وآنس وأكثر اتساعاً، من غابة اللّغة.»

هكذا، لا أقدر أن أعارض مسيرة الزمن إلاّ بمسيرة الكلمات.

هكذا، بعد عراك طويلٍ مع اللّيل، أتعلم كيف أقرأ الفجر.

غيم

علّمني الأفقُ آدابَ الغيم. لماذا، إذاً، تغطي الغيمة وجهه دون أن تعتذر له؟

هنا، حيث أقيم، يطول كثيراً جلوس الغيم على عرش الوقت. حولنا بشر يرتطم كلّ منهم بغيره، متعكزاً على الفلك.

السماء نفسها تولد في أحضان غيمة. أَلِأَنّ الغيمَ يرمي نردَه واثقاً دائماً من الحظ؟

كمثل غيمةٍ صغيرة هذا الغراب العابر. لا أشكّ في أنّ صوته كرويٌّ كمثل الأرض.

دُهش الضوء من جهلي، عندما سألته: ماذا يقرأ الغيم؟

حرب

ذلك الذي يحاربكَ لِوجه الحرب، يعرف كيف يسير في حقل التعاليم. فهو يحمل نِيرهُ بشكلٍ بارع.

في هذه الحرب، حَقّق الذين يأكلون لحم أصدقائهم وإخوانهم تقدّماً كبيراً: كانوا سابقاً يأكلونه في صحن الطبيعة، وهم اليوم يأكلونه في صحن الثقافة.

حربٌ تعمل هي كذلك على ألاّ يكون الصباح إلاّ نافذةً صغيرة في البيت الذي يَسكنه هباء الذرة.

الشعر في هذه الحرب نحّاتٌ ينقش أعماله على جدران الريح.

كلاّ، لن أحارب.

سأقدّم طلب انتسابٍ إلى رابطة الموج، وأَلتمس نَورساً لكي يقدّمني ويعرّف بي.

هكذا أقول لنفسي: اطمئنّي إلى جنوني. تعرفين شكله القديم. ولئن كان يأتيني، بين وقت وآخر، جنون حديث، فلكِ أن تطمئنّي كذلك. فهو جنونٌ لا شكل له. ولا يعرفني. خدعَ مرّةً عين الطبيعة فيما كنت أنظر إلى تجاعيد وجهي. ولن يفوته أن يخدع كذلك عين المجهر.

وردة المادّة

نام المنطق بين يدي.

كان الشعر يسهر راقصاً مع كيمياء الأشياء. لو كان للكيمياء ثديان!

في ذلك اللّيل، مات أول أصدقائي. نزلت نجمة إلى قبره، وأخذته إلى بيتها. صرخت: أيّها العقل لماذا أخذتَ بثيابِ النجوم، ونسيت أجسادَهنّ؟

يُشبَّه لي أنّ الأرض تكاد أن تحترق في مطبخ عُشّاقها السماويين.

غَيبٌ - لكي أحسن رؤيته، أُلامِس وجهه بوردة المادّة.

كذب

جرّة العسل التي أهدتني إياها امرأةٌ أحبّها، أفرغتها أمسِ، وملأتها كلاماً حول الجسد ومَجرّاته.

كانت شهبٌ تُمَسْرِح قُدّاسَها في بيت الفضاء. كان كلّ شيء ينحني فوق الجزيء الذي لا يزال يرفض أن يتجزأ.

ما عَدَا الضوء.

كان الضّوء مأخوذاً بما يختبئ وراء الستار.

بلى. شَيَّخْت ولا تزال الكواكب أسّرةً لأحلامي. لا يزال جسد السّماء واحداً من كتبي الأولى.

وكلّ يوم، يومئ إليّ غصنٌ في تلك الزيتونة التي تكبرني قليلاً. يبدو، فيما يومئ، كما لو أنّه كرسيٌّ يجلس عليه الأفق.

بلى، لقد كذب عَليَّ العِلم.

أين

كانت الوردة التي تذبل بين يديه تطبق أجفانها. هل كانت تطبقها على كلامٍ لا يفهمه إلاّ الهواء؟

كانت نجومٌ كثيرة بحجم البؤبؤ تتلألأ في وجهه.

كان يسمع الشّمس تخاطب النّهار، يسمعُ النهار يخاطب الليل يسمع اللَّيلَ يتمتم: لا أسمع.

سِهامٌ تنكسر في أحشائه. لا يعرف كيف تجيء، ومن أين؟ الماء نفسه لا يقدر أن يقدّم له عكازاً يتوكأ عليه. مِن غابة اللّيل، جمع أغصاناً وحاول أن يتوسَّدها. لكنّ رأسه ظلّ جامحاً، ودخل جسده في ليل آخر.

أين يمضي، ولا طريق له إلاّ بين الجرح والجرح؟

لا تفتحي ذراعيك. افهميه، واغفري له. يفضّل الآن، في هذه اللّحظة، سرير أحلامه.

وجه

وجههُ غابةٌ من الأسئلة، لا يقدر أيّ جواب أن يخترقها.
الكلام في هذه الغابة يتحوّل إلى ورق، والورق يعود إلى الشجر: أهي أيضاً كيمياء الشعر؟
أكثر من نجمة تتدلّى فوقه لكي تشاركه الأرق، ولكي تقرأ معه كتابة الفجر. اللّيلُ حوله يمسك النهار بأهدابه، والنهارُ يمسك اللّيل بأظافره.
وجهه اليوم، ربما للمرّة الأولى، يراقب الشّمسَ وهي تُسْلِمُ شعرها لمقصّ الغروب.
حقاً ، للحياة بيتٌ يتّسع لكل شيء، وللموت بيت لا يتسع إلاّ لشيء واحد: الموت.

حرب - II

حربٌ - يتقدم الزمن على عكاز من عظام الموتى.
والرصاص يقيم ولائمه فوق بسطٍ نسجتها الأهداب.
جماجم تسكب الدماء، جماجم تسكر وتهذي.

حربٌ - سلاسلُ تتقدَّم في مهرجانِ أعناقٍ تنكسر.
التاريخ أقدامٌ، والأيام أحذية.

حربٌ - تقذف الرؤوس في ملعب غبارٍ لا حارسَ له ولا مرمى. في رمادٍ يلبس الشوارع، في شوارع تلبس أشلاءها.
لا تقدر الشّمس نفسها أن تضيء ذلك الجسد الذي ينزف ظلاماً. وتكاد أن تقول لضوئها:
ابهُرْ عينيّ لكي لا أَرَى.

حربٌ - يصدأ الفجر في إنبيقٍ من الرصاص. في هواءٍ يَنْتُنُ في أفقٍ كأنّه سحر أسود. في دمٍ يرتجل كتابَ الغبار، في غابرٍ يرتجل وجوه البشر.

حربٌ - العقولُ خَمَّت، والأفكارُ خِرقٌ ترفرفُ أعلاماً. من يقول أَين الإنسان؟ من يؤكِّد أَنّ هذه أمّنا الأرض؟ كلّ

لحظة، يموتُ شخصٌ في العائلة الباقية من سلالة الحب. نسي الوردُ كيف يلد رائحته. حربٌ - العبث يكتب. الموت يقرأ. الجُثَثُ الحبر.

حربٌ - هل نصنع من الموت ورقاً نكتب عليه أيامنا؟ هل بدأنا نفهم الآن صمت الحجر، وذكاء الغراب، وحكمة البوم؟
حربٌ - بَقَرةُ اللعنة تتزيَّن بسكاكين التقوى. كأنَّ الحياةَ خَطأٌ يصححه القتل.

عري

تعرّت الفراشة. دخلت في النّور وماتت. قال اللّيل: هذا قبرها. قالت الفراشة: هذا بيتي.
لماذا إذاً، أغنّيك أيّها الورد، ولا أغنّي ذلك الشوك الذي يسألني دائماً: هل تعرف الوردَ حقاً؟
ولماذا لا أقول: البراءة هي كذلك حجاب، وتكاد الشّمس هي كذلك أن تصبح قناعاً؟

سوء استخدام

هي وردتك، ترزح تحت وطأة المرض، مرض شخّصه طبيب صديق من أطباء العطر. قال: إنّه تدرّنٌ آتٍ من سوء استخدام الضّوء.

وقال طبيبٌ صديقٌ آخر: إنه آتٍ من سوء استخدام الظلّ.

أمس، نظرتُ إليها، فرأيت في جسمها شحوماً تأكد لي أنها آتية من الهواء، فهي لا تتنفس إلاّ الدّخان.

كدت أن أضع يديَّ على رئتيها، فيما كنت أحاول أن أعيد تأهيل لياقتها الكونية.

في أثناء ذلك، رأَيتُ كأنّ وجه الفضاء يخرج من عنقها المائل.

قرون الماعز

يمكن الغيم في باريس أن يكون طِلاءً. يمكن الهواء أن يكون نوعاً من الصمغ لا أزال جاهداً في التعرف على أسراره.

ولا أذكر أَنّني رأيتُ القمر في أيّ مكانٍ يجرّ ثوبه مبللاً بماء شهواته كما رأيته مرّةً في سماء باريس. وخُيّل إليّ أَنّه يوشوشني قائلاً:

لا تأبه لهذه الهياكل التي تحيط بك، وتذكَّر دائماً أبوللون:

«في ديلوس،

بنى أَبولّون هيكلاً من قرون الماعز».

الأرجح

من أين جاء هذا الشاعر؟ يتكلم، حيناً، كما يتكلم الشجر، وحيناً كما تتكلم الصاعقة.

قال مرة:

كلّما أصغيت إلى الطبيعة، أَزداد شكاً في أن تكون السّماء شفّافَةً، كما يزعم بعض الشعراء وكثير من الفلاسفة.

الأرجح أنّ السماء تقيم في مطبخ، إمعاناً في التدليل على كثافتها، وعلى شراهتها إلى الأرض.

امرأة

ما أبهى تلك المرأة وما أغناها. عاش معها دهراً. وكان يشعر، كلّما رآها، كأنّه يراها للمرّة الأولى. هي التي كشفت له أنّ للشعر جسداً. أَنَّ أيروس يقيم فيه، لا يبرحه، متجولاً في أنحائه. تارةً في البشرة وخلاياها. تارةً في أعماقٍ لا يُسبر غورها. وهي التي قالت له: إن كانت حياة الإنسان لغواً، وهي كذلك على الأرجح، أَفليسَ يعيشها متناثراً في الأوراق التي تسمّى دفتر الحب؟ ومرّة، قال لجسده باسمها أن يبتكر، كلّ يوم، بديلاً له. لكن، مُذَّاك، أخذ يشعر أنه ليس جسده وليس البديلَ الذي يبتكره.

إلى متى، إلى متى، سيتعذر عليه أن يوقظكِ أنتِ، أيتها المرأة، أيتها الغابة التي تنام في أحشائه؟

أفكار

ثمّة أفكارٌ تقود البشر لا نرى ما يشبهها إلاّ عند الغبار والريح. أفكارٌ لا تُعلّم إلاّ سرعةَ الذبول في الحياة التي لا تعلّم إلاّ النضارة.

تبدو حيناً كأنّها ثقوبٌ في طبقاتِ الوعي مسكونةٌ بالدمع، وحيناً، كأنّها رمادٌ على أرض الصحراء.

هي، في كلّ حال، خشخاشٌ يلبس مخمل الوقت. أفكار - كراتٌ من الطّين تتدحرج فوق بؤبؤ العين، وكثيراً ما تنسكب في الرؤوس كمثل مياه تغلي.

وما أعجبَ لغاتها: لا تعمل إلاّ على أن تملأ فمَ الحلال بالمحرَّمات.

صور

في البيت الذي ولد تحت سقفه، لم يرَ أيّة صورة تتدلّى على أيّ من جدرانه. لكن، كان كلّ شيء، بالنسبة إليه، صورةً. البيت نفسه، الطريق، الشجر، الحجر، الغيم، الأفق. كان النّاس هم كذلك، صوراً في عينيه.

ولم تكن الحياة نفسها إلاّ كلمة يتهجَّاها بين حدّين:

شمسٍ غامرةِ الحضور في الصيف،

وريحٍ في الشتاء تهبّ كأنها محمولةٌ على رؤوس الشياطين.

لكن، مع هذا كله، كان يبدو في طوافه بين هذه الصور، كأنّه يرقص في عرسٍ من الضّوء.

النهر

بردى. يهدر عارياً. يتقدم في اتجاهنا. بعد قليل، يجيء ويجلس هنا معنا، في هذه الزاوية.

كان لجغرافيا الماء في سرير بردى أن تتجلى، أحياناً، رقصاً / جسداً يتغير كلّما نَظرنا إليه. لا العدد يلحق به، ولا تحيط به الهندسة. لا يكادُ يُولد شكل في هذا الرقص حتى يموت شكلٌ آخر، لينبعثَ في شكل جديد.

إنّه النّهر: «لن تعبره (لن تراه) مرتين».

ليست الحركة المرئية للماء إلاّ السّرّة التي تُخْتَمُ بها أحشاءُ ليس لطاقتها على الخلق نهاية. تعرض علينا اللعب الظاهر. لكن ما مِن أحدٍ يقدر أن يكتنهَ أعماقها.

وسألت:

- كيف تقدر الكلمات أن تُمسكَ بالماء؟

وجه II

الوجه الآخر/ التعب: إذ أقول: التعب، أقول: الحياة اليومية. التعب امرأة أو رجل. التعب كرسي أو مقهى.
والتعب الظلّ والعتمة. وهو، كذلك، القمر والشمس.
للأيام، أيام التعب، كتبٌ، وكلّ خطوة كلمة. وليس للكلمات نهاية.

الوجه الآخر/ مزيجٌ يتلاحم، يتفككُ، يَتلاحَمُ في حركةٍ دائريّة لا تهدأ. وكلٌّ وجهٍ وحيدٌ حتى حين يتعانق مع وجه آخر.

الوجه الآخر / يرتفع الواقع المباشر إلى مستوى الشعر والحلم. تود أن تعانق هذا الواقع، أن تسكن فيه، ذلك أنّ النسيج واحد، والفضاء واحد، لكن لكلّ خطوة إيقاعها الخاص، ولكلّ وجه أفقه الخاص. الوجه الآخر / جدل الغربة واللقاء، الحضور والغياب. كأنّك فيما تعبر سوق الحميدية، ترى ولا ترى. كأنَّكَ تبحث في ما تراه عمّا لا تراه.

سيرة I

- ١ -

كانت طفولته صداقةً بين الزرع والحصاد. لا يزال المحراث ذاكرة ليديه وقدميه.

منذ ذلك الوقت، جمع بين الكلمة والفأس ومزج وجهيهما.

عرف كذلك أنّ الكفاح بستانه الوحيد، وأنّ الانتصار ثمرٌ ينتظره عند الضفاف الأخيرة لظلمات العالم.

- ٢ -

يَتّجه/ تنزفُ الجهاتُ من أطرافه كنبعٍ من الضوء. حين يتعب ينام/ بين عينيه أفق، بين يديه حقل. رأسه النّار وقدماه التراب. وكأَنَّ قاسيون عضلةٌ من عضلاته. هكذا ينام منيعاً كالمادة.

في أثناء نومه يهبط ظلّ من رؤوس الشجر، يغطي وجهه. حين يستيقظ، يقرأ ما كتبته الحقول.

- ٣ -

النّسيم الذي يبتكر ثوب دمشق، يَتَجاوزه ويخرج إلى الفضاء.

الثوب الذي يبتكر جسد دمشق، يموّهه ويحلّ محله.
كلَّ ليلة، تسهر دمشق في ثوبٍ مختلف.

- ٤ -

للوحل أطفالٌ يرسلهم إلى المدرسة. وراءَ كلّ طفل تاريخٌ يتدلّى من خاصرته كدَوْرقٍ منكسر، حيناً، وكالخنجر أحياناً.
الخطوات أشجارٌ مقطوعة/ تحت كل خطوةٍ فَخٌّ يضحك.
يلبس الغبار ويسمّيه الفقر.
ثم يدخل إلى ساحات المدارس ليرى التلاميذ، فتياناً وفتياتٍ،
يلبسون غباراً آخر، سَمّوه باسمٍ آخر.
أينما وضع قدمه، يخرج من تحتها ذئب/
هكذا يقول لمن لا يجرؤ على الصراخ:
إِصْرخْ.
هكذا يمنح الحلم لمن لا حلم له.

مرّةً، وضع على المسرح، وهو يتذكر صداقة الزرع والحصاد، كواكبَ وآفاقاً أخرى.
لكن، لم يشاهد غير القَشّ،

ولم يَسِرْ وراءه إلاّ الجدران.

غداً، تهاجر الخِراف إلى حقولٍ أكثر شوكاً،
غداً، نسمعُ من يقولُ: الأشجارُ تسبق العصافير.
- لماذا؟
- للتوكيد، مثلاً، على أن المحراث هو العاشق الأول للحقول.

فجأةً، قال صوت:
التَّعب مسرحٌ لإخراج الغضب.

سيرة II

كان يصنع من محراثه فضاءً، ويقول لغضبه أنت الكوكب.
هكذا كان يرى المسافات قصيرةً في خطواته،
والحقولَ صغيرةً بين يديه.

اكتشفَ أنّ لديه بيوتاً كثيرة، وأنّ التعب هو بيته الأجمل.
اكتشف أنّ في هذا البيت - الوطن، على العكس ما علّمه كتّابٌ وشعراء كثيرون، جبالاً من الورق، وبحيراتٍ من الحبر، وأنّ فيه أشجاراً تلبس براعم لها أشكال الكلمات.
لهذا كان يقول دائماً: ثمّة نافذةٌ أكثر مما ترى العين أحياناً.
ثمّة طريق بعيدة، أكثر قرباً من عتبة البيت.

كان للتعب لون يديه. لكن، كان ليديه لون الكلام. هكذا كان يحصد الريح.

الغيم يعمل للمستقبل، لكن على المطر أن يثبت صحة العمل.

المسرحية مكتوبة على الرغيف، وليس للمسرح أبواب ولا نوافذ/

أَكْمِلْ عملك، أيّها الظلام، وارسمْ على كلّ جسدٍ سِجْناً/

أكمِلْ عملك، أيّها النور، وارفع لكل تائهٍ منارة.

وأنت أيّها الشريد الذي تتجاذبه الأقاصي،

تذكّر:

ثمّة سفن تحمل البحر. ثمّة بحارٌ تنوء تحت مراكب الدمع.

كان يُقال: الدمعُ يغطّي الوجوه الجميلة، لكنّ الرّمَاد هو الذي يغطّيها اليوم.

وكان يقول عن العيون الفاتنة إنها تثق بليلها المدهش، أمّا اليوم فاللّيل هو الذي يثق بعينيه.

وكانوا، حين يمتدحون الأحياء، يقولون إنهم يموتون معاً، واليوم يموت كلٌّ منهم في سرير شخص آخر.

الغياب شامل،

والأرض لا تدور إلاّ داخل الذاكرة.

حين قرأ ما يقوله كارل يونغ: «مات المدهش العظيم

وامّحى وطن التوهم»، كتب يقول: «سيخلق الإنسان دائماً مدهشاً آخر، وسوف يبتكر دائماً وطناً آخر.»

لكن، حين قرأ بول إيلوار، صديقه في الشعر: «موكب، صراخ، أناشيد، أسلحة، مشاعل، بهائم. . . وأنا ملزم بالسير ولا أعرف وراء أيّ باشا وراء أيّ سلطان.

كُلْ رغيفك في العربة التي تأخذك إلى المقصلة.

كُلْ رغيفك بهدوء.

قلت سابقاً: لم أعد أنتظر الفجر، فالليل أبديّ مثلي».

حين قرأ هذا الذي يقوله إيلوار، أحسّ بالحصار، حقاً. فهو، من زمن لم يعد قادراً على التفاؤل لأنه كان يقوده تجريبياً إلى مزيد من التشاؤم. وكان التشاؤم نفسه يدفعه، تجريبياً أيضاً، إلى مزيد من الثقة بما يقول ويرى. وهو لا يريد أن يصل إلى هذه الدرجة من الثقة.

سيرة III

كانت الأجساد تتساقط وما من أحد يحسّ بها كمثل التراب. ولم يكد يتفوّه بهذه العبارة: «بعدي هذا الطوفان»، حتى وصل الطوفان إليه وجرفه.

. . . كأن الأشياء مسكونةٌ بجنون السقوط.

كان الزمن بين يديه نسيجاً يغسله كما يغسل قميصه أو يكنسه كما يكنس المكان الذي يجلس فيه.

يبدو أنه تعب الآن.

يخيّل إليه أنّ كلّ شيء حوله يتأوّه ويصرخ.

ليس في الأرض مكان يتعذّب دون جدوى أو معنى كهذا المكان.

كأنه هنا لا لكي يجيب، بل لكي يسمع. ارفعوا هذا الرداء عن جسده، وانظروا إلى ذلك الجرح الذي لا يشفى. إنّ له أسماء ثانية.

أحياناً، يسمّى البيت. وأحياناً يسمّى الوطن.

«ليس للبحر ماضٍ إلاّ للحظة واحدة: لحظة اصطدام الموجة بالشاطئ.»

قال هذا، وتابع: «ليس للبحر غير المستقبل.»

سيرة IV

الآن، بدأ الزقاق الذي نشأ فيه يطرح عليه الأسئلةَ ممزوجةً بالغبار والغضب.
الآن، ينظر إلى الأجوبة تتصاعد في عنفٍ أخضر، زَرعه أطفالٌ لعبوا مِراراً مع الشّمس وهبائِها.
الآن، يعرف أنّ للأطفال جبيناً أكثر اتساعاً من التاريخ المكتوب.
بين خطواتهِ ماءٌ لا تستطيع رمالُ الزمَن أن تبتلعه/
مع أنّه يكرر دائماً:
١ - ليس لهذه الشوارع جمال إلاّ في عيون السّيارات والطنابر وأكداس القمامة.
٢ - سنهجر هذه المدينة ونمضي إلى شواطئ الحزن حيث نكتشف أفراحنا.
٣ - حفرنا في وجه العذاب مشكاةً لكي نضع فيها شمعة مزدوجة للحلم والعمل.
٤ - أصغوا إلى الشوارع تلقي على العابرين قصائد الغبار.
٥ - انظروا إلى الغبار يمنح كل عابرٍ ثيابه الجديدة.
٦ - للتاريخ هو أيضاً نجوم تسطع في الغبار والوحل.

قالت:

«ها هو ضياؤه يحرقه.»

وقالت:

«يراهن بحياته من أجل الخطر والغامض، من أجل يُمكِن وربما.

هكذا يحتمي بطفولة اللّيل. هكذا يعيش/ يلقي رأسه على كتف الصباح، ويدير وجهه إلى الضوء.»

قال:

«حبّكِ لي جسدٌ آخر. تبتعدين عن نفسك حين أبتعدُ عنك.»

كانت يقظته، ذلك الصباح، على موعدٍ مع القمر. مع ذلك، فوجئ به يسبح في عينيه. كان يبدو كأنه يخيط أطرافه بجفونه.

لكن صوت الشّمس الذي يهدر في الخطوات الصباحية قَطع كلّ خيط. وها هي بحيرة عينيه تجف. وبقيَ القمر ملتصقاً بأعماقها، عارياً، بارداً.

انغمر في العمل ونسيه. وسأل عينيه:

- «أين القمر؟.»

لكنهما لم تجيبا. وأخذ الدمع يغسل غبار الوقت.

قالت:

«يحوّل شِراعَ الكلمات في اتجاهٍ غير اتجاهاتها، وغالباً في اتّجاهاتٍ ترفضها الريح. هكذا يعرف كيف يقود سفينة الصور.

(وكانت كلماتٌ تسير في شوارع دمشق كأنها ناقاتٌ عِجافٌ يحملن أشياء تَنْزلِقُ على ظهورها تُسمّى أفكاراً. وكان صوتٌ يقول:

«لا تجعلوا الأفكار تتدلّى على ظهور الكلمات. لأنكم، إذا فعلتم، تحسبون الكلمة جبلاً عالياً، ثم تمضون أيامكم/ تحاولون الصعود إليه.. لكن، في سفينة من البخار.»

ثم سكت الصوت مكرهاً.

وقالت:

«كلماته سواعد تمتدّ، وبين الكلمة والكلمة أكثر من فضاء. هكذا، من يكتب بوحيٍ من الرعد لا يستطيع إلاّ أن يجرفَ الوحل والقَشَّ واليباس.»

كانت، وهي تتحدث، يكتشف أنّ ليديها قسماتٍ وملامحَ

كالوجه. كانت يدها تحزن أحياناً. وكانت، غالباً تنظر إلى الأفق وتبتسم.

اللّيل الذي رضي أن يكون خيمة النهار، تحوّل إلى حَطّابٍ يعيش في الغابة، وقلَّما يأتي إلى المدينة. لكن، قيل عنه إنّه يربي أشجاراً لها شكل الوجوه وتحمل ثماراً اسمها الغضب. وقيل إنّ الشمس تعيش معه، سرّياً.

يريد أن يكون كلُّ شيءٍ قريباً. هل نسي أنّ البعد هو الذي يخلُقُ الدّروب؟
هل يريد أن يمشي بقدمين غير قدميه؟ حين ينتهي البعدُ ينتهي الأفق.

سأل: من يعطيني صخرةً ويأخذ بيتي؟ لكن، لم يفهم أَحدٌ سؤالَه.

(دمشق، ١٩٧٦)

تاريخ

كانت الشّمس تسيرُ حافية، تحيةً لموسيقى زرقاء تطلع من الموج، فيما كان يصغي إلى البحر يقرأ شعره بصوتٍ عال.

نوارس - مرايا تتلألأ في الزبد. والموج يهبط ويعلو متكئاً على جدار الهواء.

«لستَ منّي»، يقول البحر للزبد الذي يرشح من جسده.

تعلّم، إذاً: لا تكونُ نفسَكَ إلاّ بِقْدر ما تكونُ حرباً عليها.

كيفما نظرتَ إلى البحر، وفي أيّ وقت، ترَى موجةً ترقص بحذاءٍ من الزبد، ولحظةَ تتعب تموت.

هكذا أظنّ أنّ لي تاريخاً في البحر. وأظنّ أنّ جهلي فيه ثاقبٌ وَحيٌّ كأنّه جهل الماء.

شتاء

من الشتاء ومنّي، أَنشأتُ جسداً واحداً. تحت ثيابه أخبئ الشّمس. ربما لهذا يتراءى لي المطر في الشتاء كمثل ثوب تخلعه السماء لكي تلبسه الأرض.

وربما، بسببٍ من ذلك، ينزل المطر سؤالاً، والصحو هو الذي يجيب.

فرح الشتاء كثيراً حين عاد إلى بيته، وأخذ يقرأ كتاب الخريف.

كتابة

يكتبُ الموجُ، هو كذلك. لولا كتابة الموج لم تُقْرأِ
الشواطئ. مع ذلك، لا تأبه الصخور لنشيد المياه.
وانظروا كيف يضع الموجُ رأسَه على وسادة الشاطئ،
واسألوا: أهكذا تُخَبَّأُ رسائلُ البحر؟
كانت الريح تبدو في هذه الكتابة كأنّها اللَّهجةُ الدارجة في
لسان الطبيعة، فيما يبدو الضوء كأنّه اللّغة الفُصحى.
اكتبْ، إذاً. تلك هي الطريقة المفردة لكي تقرأ نفسك،
ولكي تصغي إلى العالم.
وغَيِّر مسارك. خُذْ طريقاً أصعبَ وأطول.
ألم تقل إِنَكَ تكتب قصيدة.

الأحمر

فوق بساط أحمر من الورد وشقائق النّعمان تصلّي الألوان في حديقة بيتنا الصغيرة. للأحمر نسيجٌ - بعضه فراشٌ للمكان، بعضه قميصٌ للوقت. حين يلبس تاجه، ويصعد على درج الفصول، تنتظره الأرض في سرير أخضر.

يا شجرة الدّفلَى الحمراء - كلُّ غصنٍ فيك يتموَّج ويحمل هودجاً أحمر. بحنانٍ أُصغي إليك، أَيّتها الشفاه التي ترتجف بين أوراقها.

الأحمر أجملُ كرسّيٍ للشمس.

مقهى شاتيلا / الروضة

في المقهى، امرأةٌ حبلى تتحدث مع جسدها. قربها نخلةٌ شبهُ عارية تكاد أن تيبس حزناً لأنها لا تعرف كيف تظلّلها. شجرة الإزدرخت، في الزاوية، تنحني وتلاطف رجلاً يجلس تحتها. من الموج القريب تندفع خيولٌ يظنّ كلّ جالس أنها أحلامه، وفي كلّ زاويةٍ يدٌ خفيّةٌ تلأم الجرح. ريح خفيفةٌ ملأى بالأراغن، تختلط بالأجراس التي تصعد من حنجرة بائع اليانصيب، وتسلّم على الجالسين.

لم تتوقّف الشّمس عن مزج أشعتها بالشجر والناس فيما كانت ترسم البحر.

للمقهى عنقٌ يتوسَّد الأفق.

أنقاض

كان القمر يكسر مراياه فوق الأنقاض، فيما كانت بيروت تصنع من الدّم والرماد عكاكيزَ تتوكَّأُ عليها.

حقّاً، تبدو السماءُ سلاسلَ في قدميها، وتبدو النجوم كأنها خناجر في خاصرتها.

يفرك النهار عينيه ويتنهّد: لا يصدّق ما يرى.

إبكي، بيروت، لكن امْسَحي دمعك بمنديل الأفق. كتبتِ السَّماء مرّة لكنك أخطأتِ، وها هي بخطيئتك نفسها، تَكتبك الآن.

أعندك أبجديّة أخرى؟

تلك المرأة

كانت الشجرة التي تفيأتها مع تلك المرأة تتلفظ بكلماتٍ لم أفهمها. سرنا. كيف نعتذر لهذا العشب الذي وطئته أقدامنا ولم يتأوّه؟ نظر إلينا، مُنحنياً.

ابتسم النهرُ الذي عبرناه. رقصت ضفّتاه، فيما تَنزل إليه أغصان الصّفصاف لكي تستحمّ. لم يكن شهر آب، طول سنواتنا الماضية، أكثر فرحاً منه، اليوم. كان يمسك بيد النهر، ويدعو ماءه إلى الرّقص.

من زمن، ننتظرك، أيّها النهر، لكي تُجلِسَ حياتَنا الطفلة على ركبتيك. من تعبك، من أحضانك، تَتَطَايَرُ الأجنحة.

كتاب الصّيف

بيت

أسمع جدراناً تتنهّد مستلقيةً على كتف الشّمس.
أرَى عِناقاً ما بين حَجَرٍ وكتاب.
ألمسُ في الهواء جسدَ الغياب.

تطأ قدماي آثارَ الأحلام التي شاركت عينايَ في نَسْج ثيابها. يسهر عليّ ما لا أراهُ، كأنّه يحمل عنّي عِبْءَ ما أراه. تمنّيتُ أن تكون الأيّام سلاحفَ أضناها السّير،
وأن يكون الحزنُ عَربةً لا تتّسع لغيري.

قنديل

- أ -

على طرف النافذة التي كان يَتكّئ عليها، نجمةٌ تكاد أن تنطفئ.

- ب -

لم يكن يُقلّد من الوردة إلاّ شفتيها.

- ج -

عِقْدٌ من فراشاتٍ ميّتة ينفرط بين يديه.

- د -

«سأظلّ وفيّةً لذكراه»، تقول شقائقُ نُعمانٍ تتناثَرُ في غابات السّنابل، كمثل بيوتاتٍ صغيرةٍ من القرميد الأحمر.

- هـ -

لن يقطع، بعد الآن، أيّةَ مسافةٍ في اتّجاه الضّوء.

- و -

أيّة ظلمةٍ سَتختفي بموتِه، هذه اللّيلة؟

حَقْل

- أ -

يصعد من حنجرته صوتٌ مذبوح.

- ب -

الزَمنُ كمثل شيخٍ ينامُ فيه، ويتغطَّى بأعشابه.

- ح -

بحثتُ عن أياميَ الماضية بين الشّقوق التي تملأ جسده، -
منذ خمسٍ وستين عاماً، أسافرُ،
وهيهاتِ أن أصل.

- د -

يبدو كأنّه لا يُريد أن يتذّكر حتى الماء.

- هـ -

كان العالم يخرج من عينيه
في عقودٍ من الدّمع.

شُرفات

\- أ -

نَظَر إليّ الرّملَ فسوّاني رملاً،
نظر إليّ الماءُ فآخاني.

\- ب -

ليس للغسقِ إلاّ الذّاكرة.

\- ج -

لي أحلامٌ عالية،
والأشياء كلّها واطئة، -
ألهذا لا يفارق الحزن عينيّ؟

\- د -

لا يقدر الشعر أن يسيرَ
إلاّ على طرَفِ الهاوية.

\- هـ -

كيف تُريدني أن أسافرَ خارج نفسي،
وفي داخلي قارّاتٌ لا أعرفها؟

\- و -

جسدي في حركةٍ دائمةٍ من الابتعاد عن جسدي.

- ز -

لا أسأل: مِن أين، أين كنتُ؟
أسأل: أين أمضي؟

- ح -

بُرْكانٌ يهدرُ في مخيّلتي، -
امرؤ القيس - المتنبّي، وبينهما ذلك العِقد الضّليل من الشّعراء تترنَّح حَبّاتُه هابطةً على سَلالم الرّغبة،
- إلى أين؟
- نجمة المكان تكاد أن تنطفئ، والزّمن قنديلٌ شاحب.
- أحلم أن أُشَيّع، حين أموت، وليست في جنازتي غير وردة واحدة.
- عادةً، نُشيّع أَحياءَنا، ولا نقبر موتانا.
- لا شيء، لا شيء.
ريحٌ خفيفةٌ تعزف على قيثار الشّجر.
- لا شيء، لا شيء،
فراغٌ، هيهاتِ للكلام أن يَملأهُ.

- ط -

احلمُ، احلمْ،
ليس الحلم إلاّ حقيقةً لم يكتمل نموُّ جناحيها.

- ي -

إنّه الصّيف،

وها هيَ الشّمس تتمدّد عاريةً أمام بَيْتِنا.

عَبثاً يحاول الظّلّ الخَجولُ، ظِلّ شجرة التّوتِ، أن يُغطّي نَهْديها.

- ك -

مات أبي مسافراً في نهاياتِ الصّيف،

وحدها النّارُ عرفت كيف تمسح عنه عَرَقَ السَّفَر،

ولم تُعْطهِ ثوبها:

أَعْطَتْهُ عُرْيَها - أجملَ وأغلى ما تملك،

أَعطتْهُ نَفسَها.

- ل -

قل لي، يا حبّي، مَنْ يأسركَ هذه اللّحظة؟

- م -

مِن زمنٍ،

تركت حصاناً لأحلاميَ بين الأغصان والسّنابل.

أعرف أنّه لا يزال حيث تركتُه. وأنا متيّقنٌ من ذلك. فالزّمن سَهْمٌ يَنْطلق ولا ينطلق: يتحرك ثابتاً، كما كان يقولُ جارُنا زينونُ الإيليُّ. وللطفولة أجنحةٌ تطيرُ ولا تطيرُ، كما يقول

الشعر، غير أنني لم أعد أعرف كيف أعثر على ذلك الحصان.

- ن -

في عينيّ شجرة تفّاحٍ يجلس تحتها نِيوتُن آخر.
فجأةً، يكتشف قانوناً آخر لجاذبّيةِ أخرى:
أ - زَهْرة تخطّت حاجزَ النّبات،
تنظرُ إليّ وتتحوّل إلى امرأة.
ب - وضعت قدميّ على حجرٍ،
انفتح بابٌ على عجائبَ سأرويها إلى طفولاتٍ لم تجئ بعد.
ح - سفنٌ من الضّوء لا تَتّسع لغير الأطفال ولغير الطّيور وأعشاشها، تتنزّه على شواطئ الشّمس.

- س -

قولوا للماء الفقير في نبع قريتنا:
سَيظَلّ الشّتاء يخادعكَ. ستظَلّ لِلصّيف شُغلَه الشاغل.
وقولوا له:
ابْكِ، وامسحْ دموعكَ بمنديل الطّبيعة.

النّجوم في اليد

- ١ -

ثمّة أسطورة يردّدها بعض القرويين، تقولُ إنّ اللّيلَ في الصّيف ينقلبُ إلى شخصٍ ساحر. لا يظهر في القرى طُولَ هذا الفَصْل إلاّ حاسرَ الرّأس. يمشي وحيداً. يُمْضي وقته كلّه، يعدّ النّجومَ، ويَلْتَقِطَ النّيازك.

- ٢ -

في الصّيف، حيث تصفو السّماء، كنت أقرأ النّجومَ اعتماداً على خطوط يديّ. وكان لي صديقٌ يعارضني. يقرأ، على العكس، خطوطَ يديه اعتماداً على النّجوم:

لم نكن نسأل: أيٌّ من الطريقتين أقرب إلى العلم؟ كنّا نسأل: أيٌّ منهما أقرب إلى الشعر؟

كان يقول: الشعر هو الطبيعة.

وكنت أقول: الشعر هو الغيبُ في لباسِ الطُبيعة.

كان الخلاف بيننا كبيراً. مع ذلك بقينا صديقين.

- ٣ -

منذ فترةٍ، لم تأخذني أحلامي إلى حدائقِ الصّيف.

ليس لأحلامي الآنَ غير التشرُّد،
وحين تجلس لترتاحَ، يستأثِرُ بها الشّتاءُ.

- ٤ -

أَرني يديكَ، أيّها الصّيف:
مِن أين تنزف هذه الدّماء؟

- ٥ -

أحسدُ البحرَ وأغبطُه،
عندما يَسْتلقي بين قَدميْ الشّمس.

- ٦ -

لم يعرف صيفي بعد
كيف يجلس كالطفل في حضن وَرْدةٍ شآميّة.

- ٧ -

بلى، أفضّل شهوات الغيوم
على فضائل النّهر.

- ٨ -

عندما أسافر أَتلعثم،
عندما أعودُ، أقول: وداعاً.

- ٩ -

المنفى زَرْعٌ لا حصاد.

- ١٠ -

أَجِّلْ فَرحَ الصّيف
إلى أوائلِ الخريف.

- ١١ -

يبتسمُ الصّيف، -
ليس لشفتيه عَتباتٌ،
لها نوافذ.

- ١٢ -

جسدُ هذه المرأة يزحزح الفصولَ.

- ١٣ -

كان الحزنُ عطرَك، أيّها الشّاطئ،
قبل أن تصلَ إليكَ أمواجُ الصّيف.

- ١٤ -

عَبثاً تبحثُ عن مَطَرٍ مَجْنونٍ
إلاّ في الصّيف.

- ١٥ -

لا تحاولْ، حين تسقط في هاوية الصّيف،
أن يكون هذا السّقوطُ بطيئاً.
سَرِّعْهُ، واهْبط اهْبط
في القرارة ينتظرك خريفُ المعنى.

- ١٦ -

يقال: الصّيفُ لِلرّاحة.
هل تصدّق نفسك، أيّها الصّيف؟
أَسألُ، ولست أستعجل الجواب.

- ١٧ -

إنّه الصّيف، -
لم أفتح بعد عينيّ
لأرى الفصولَ التي مَرّت.

- ١٨ -

كنتُ، في طفولتي، أرجمُ غديرَ الصّيف بالحجر،
في شيخوختي، يرجمني حجرٌ آخر:
هل يَثْأَرُ الحجَرُ؟

\- ١٩ -

على شاطئ الصّيف، غيرَ بعيدٍ عن مسقط رأسي،
عرفتُ أنّ للبحر يداً خَفِيّةً لا تصافِحُ إلاّ الرَّمْل.

\- ٢٠ -

على الشاطئ نفسه،
تخيّلتُ أنّ جسَدي أمواجٌ لا شطآنَ لها.
وَشُبّه لي أنني أقولُ لمخيّلتي:
أنا مُثنّى نَفْسي، وأنا جَمْعُها.

\- ٢١ -

يحزنني، أنا الصّيفَ
أن يُقال الرّبيعُ يجهل الحزن.

\- ٢٢ -

يَنْحدرُ جسدانا، أيّها الصّيفُ،
مِن سنابلَ واحدة.

\- ٢٣ -

تجلسُ شمسُ الصّيف تحت الشّجَر،
تَتسّول الهواء.

- ٢٤ -

رأيتُ للموتِ خيولاً تركضُ بين أغصانِها
رأيت جذورَها تتعرّى، ويهرب منها حتّى التّراب
رأيتُها كمثل قيثارةٍ بوترٍ واحدٍ، لا تقول غير الأنين، -
إنّها شجرة الزيتون التي كنت، حيناً،
أتفّيأ تحتَها.

- ٢٥ -

جَفّ ماء النَّهْر، -
جفَّ الحِبْرُ الذي كان يكتب الضّفاف. لم يكن النَّفَلُ، والأقحوان، الجَرْجيرُ والهندباء قصائده الوحيدة.
ترفّقْ، أيّها العابِرُ، بتلك الدّفاتر المتناثرة بين يدي الجفاف.
ترَفّقْ بالقصب المائل العُنق، المنكسر القامة، بجذوع الصّفصاف الباكي الذي هجرته حتّى دموعه،
وأين الأفقُ الذي كان يتمدّد بين ذراعيك، أيّها النّهر؟
لا منبعٌ، لا مصبّ: وَحْلٌ يتشقّق، ويتفتّت. السّلامُ لبحيراتكَ الصّغيرة التي كانت كمثل شاماتٍ في عنقك الطّويل.
السّلام لك، أيّها النَّهر القَبْر،
أيّة شاهدةٍ أنحتها لكَ، وماذا أكتب عليها؟

سمكةٌ متحجّرة ضائعةٌ بين الغبار والحصَى،
أسرابٌ من النّمل، وحشراتٌ أجهل أسماءَها،
والأيّام تلتصق فوقها كمثل صُموغٍ بلا لونٍ
إنّها الطّريق التي كنت أعبُرها، جيئةً وذهاباً،
إلى النّهر -

غداً باكراً، سأحاول أن أوقظ الأفقَ الذي ينامُ تحتَ
أهدابها،
وسوف أخالف القواعدَ وأكرّر:
الأقدامُ التي عبرت عليها وغابَت، تحلّ محلّها
أقدامٌ أجمل وأخفّ وطأةً،
وها أسمع وَقْعَها يتقدّمُ في خطواتِ الشّمس.

الطفولة وراء الباب

- ١ -

قبل أن تضعَ الشّمس قَدَميْها على رؤوسِ الجبالِ،
منحدرةً نحو قريتنا،
وبين ذراعيها ابنُها الفجر،
تكونُ أراغِنُ الحقولِ قد تهيّأت لاستقبالها. تكون النّباتات وأغصان الشّجَر قد شربت آخر قطرةٍ مِن ندى اللّيل.
أنتمي إليك، أيّها الفجر.
أَنْتمي إليكِ، أيّتها الحقول.

- ٢ -

منذُ طفولتي، كنتُ أشعر أنّني سائرٌ على طريقٍ لا أعرفها تماماً، ولا أعرفَ تماماً المكانَ الذي تقودني إليه. لم تكن شمس الصّيف، على نقائِها، إلاّ غموضاً آخر. هكذا لم تكن طريقي، بدءاً من قصابين - تلك الوَرْدةِ الباكية التي وُلدت في ظِلّها، إلاّ تلمّساً وتردّداً، وإلاّ ترقّباً وحيرة. أذكر أنني كنت أبدأ خطواتي بموسيقى كلماتٍ تشبه الصّلاة،

بعد أن أكونَ غَسَلْتُ وجه الصّباح بالماء البارد.

وكنتُ أفرحُ، لا في الواقع بل في مُخيّلتي، متوهّماً أَنّني أَسْمَعُ أصواتاً تقول: أشجارُ الطّريق تواكِبُ العاشقَ عِندما تَسمعُ وَقْعَ خطواته. أو تقول، في توهّم آخر: ترقصُ فَرحاً به، داخلَ بيتها، فيما تنظر إليه من النّوافذ.

أمّا الطريق نفسها، فكانت وَعْرةً يصعبُ شَقُّها حتى على قرون الماعز.

- ٣ -

منذ أَنْ تَبدأَ بالتعرّف على طريقك، يبدأ ضياعُكَ الحقيقيّ: لمن تُعطي كتفيك، وفي أيّ أفق؟ وأين تدير وجهك؟ ومَا شمسُكَ؟ وهو ضياعٌ لا يخفّف منه أن يفتحَ لك الهواء ذراعيه، أو أن يتحدّثَ معك العشب.

- ٤ -

امْضِ، لا تتوقّفْ حتّى وإن كنتَ لا تعرف الطّريق. ليس الوقوف هو ما يكشفها لكَ، بل السَّيْر.

- ٥ -

لم يكن عندنا حديقة. وكان الحقل أمام بيتنا يشكو دائماً من العطش. تجفّ شفتاه إلاّ في الشّتاء، وتمتلئ حنجرته بالغبار.

- ٦ -

حين أفكّر، اليوم، في أيّام طفولتي، أعجبُ من نفسي. نشأتُ بين الفلاّحين، في وسطٍ قرويّ بسيط. لم أسمع أيّاً منهم يتحدّث عن الموت حديثَ مَن يشغلهُ، أو يخافُ منه. كانوا جميعاً يتحدّثون عنه، كأنّه ربيعٌ آخر. وحين يذهب بعضهم بعيداً يصفّه بأنّه حياةٌ أخرى. وكان بعضُهم - أولئكَ الذين خَبَرُوا الموتَ بأشكاله المختلفة في الحياة - لا يرون فيه أكثرَ من مجرّد حادثٍ أليفٍ، أو خَبرٍ عاديّ.

أقول أعجبُ، وأتساءل: من أين جاءني، إذاً، هذا الهاجسُ الملحّ، هاجسُ الموت؟ ولماذا كنتُ في طفولتي أَلْهجُ بالموت، كأنّه ينتظرني في كلّ خُطْوةٍ، وفي كلّ حركة؟

لا أعرف كيف تَمّت النّقلة: كيف أخذت شيئاً فشيئاً، أتفهّم الحكمة التي كان يعيشها الفلاّحون عفويّاً، وأعيشها مثلهم. وقلتُ: لعلّ الوجودَ، بالنّسبة إليهم، بنيةٌ واحدة، أو جسدٌ واحدٌ كمثل القصيدة: الحياة المطلعُ والموت الخاتمة. والمطلعُ والخاتمة في القصيدة مَوْجَةٌ واحدة.

هل تكون طبيعتي شتائيةً، وليست الفصولُ الأخرى إلاّ صُوَراً وتجليّات؟

أسأل لأنّ الموتَ، بالنسبة إليّ، شتاءُ الكون، ولأنّني لا أَزالُ ألهجُ به، خصوصاً في الصّيف.

- ٦ -

هذه اللّحظة من الصّيف، تحت هذه الشجرة، وبين أطفال القرية، تذكّرني بلحظةٍ من الربيع - أوائلِ الرّبيع، عندما كنّا نُسارِع لنُمْسِكَ بقوس قُزح، منذ أن يضعَ قدميه في الحَقْل.

رأيته مرّةً أمام بيتِنا في حقل التَّبْغ. كان القوسُ يتّكئ على عمودين، يصعد الأوّل من الحقل نفسه. كان الثاني بعيداً، فيما خُيّل إليَّ. لم أقدر أن أحدّد مكانه. كانت الشّمس تَضَعُ على وَجْهها حجاباً شَفّافاً لا يُغطّي إلاّ نصفَه. وكان الحجاب رماديّاً تزيّنه خيوطٌ بيضاء سَوداء.

لم يكن في الحقل أرنبٌ ولا بيت عنكبوتٍ يذّكران بما قاله رامبو عن القوس الذي رآه في مكانٍ لم يذكر اسمه.

وكان التّبغ قد قُطِف.

لم تكن في الحقل إلاّ أعشابٌ ونباتاتٌ تَستلقي وديعةً على جسده العاري.

كانت ألوان القوس تمتزج بالألوان حوله: الأخضر، الأحمر، الرماديّ، الأَصْفر، التّرابيّ. كانت تمتزج أيضاً

بعيون الأطفال الذين تجمّعوا لرؤيته.

وكان رذاذٌ ناعمٌ يهطلُ من محابرِ الغيم كأنّه رسائل خاصّة إلى الحقول.

فجأةً، غابَ القوس.

حزنتُ، ورحت أبحث عنه. تخيّلتُ مكان عموده الأوّل في الحقل، وحاولت أن أعثر على أثرٍ ما. لكن، دون جَدْوى.

ثمّ هَيْمنَ الغيم. ودخلتِ الشّمس في سريرٍ لم تنزل منه إلاّ في صباح اليوم التالي.

أمضيتُ ذلك اليوم كلّه أنتظر عودةَ القوس. لكنّه لم يعد. وَشُبّهَ لي أنّ الجوَّ يتحوّل، حزناً عليَّ، إلى بحيرةٍ من الدّمع.

- ٧ -

- أَصْغِ: وَقْعُ قدمين باردتين وبطيئتين على عتبةِ حبٍّ حارّ. والحزن يركض في الحقول كمهْرٍ في عامّه الأوّل.

- لا تَخَفْ. لن تجفّ بحيرة الطفولة.

- عَجَباً! كأنّه يتنفّس برئةٍ ليست إلاّ رئة هذه البحيرة.

- ٨ -

فلاّحون كمثل أشجارٍ تجلِس الشّمس في فَيْئِها. كانوا باكراً قد حملوا الصّباحَ ونثروه في حقولهم، مع أنَّ النّهارَ كان نهارَ عيد.

- ليس العيد وصولاً، يقول أحدهم.

العيد سَفَرُ آخَرُ في الأشياء التي لا نكفّ عن تخيّلها ولا تَتحقّق.

- وليس العيد في الجوابِ، يقول فلاّحَ آخر. ويتابع: إنّه، بالأحرى، في السّؤال الذي يأخذ شكل الحنجرة.

- العيدُ هو جَسَدُنا الآخر المشرّدُ، داخل جسدنا.

- العيدُ هو هذا الحقْل.

- فلاّحون، - خطواتهم مَراهِمُ يمسحون بها جراحَ الدّروب.

- ٩ -

لا يزال شيءٌ من طفولتي يَنْتظرني وراء الباب. أحسّه كلّما جِئْتُ إلى قَصّابين، لكنّني لا أراه.

قلتِ، مرّةً: سأنتظركَ وراء الباب، -

إذاً، سوف تمتزجين بطفولتي. وكيف سأميّزُ بينكما؟

ولستُ أنتظرُ من الزّمنِ أن يكونَ كمثلِ صَدَفةٍ تنغلق

على لؤلؤةِ المعنى. المعنى يتجاوز الزّمنَ، فائِضاً طائِفاً.
الزّمَنُ مُسْتودَعٌ لا أكثر.

امْزجيني بكِ، يا تلك الصّورة، -
لم أستقبل هذا الصّباح أيّة رسالةٍ من البحر،
وليس في سريري أيّة بقيةٍ من اللّيل.

قالت الأشجار

أ - شجرة الورد الشاميّ

انزلْ أوّلاً إلى قلبها - أعني شجرةَ الورد الشاميّ.
اسكنْ فيه فترةً، قبل أن تَتجرأ على وَصْف عِطرها.

عندما كنت أُوجّه هذا الكلام إلى رفيقي في الطّريق، كانت الشَجرة تلبس ثوبَ الصّباح، وتسندُ رأسها على صدر الشّمس.

ب - شجرة الياسمين

عندما مَرَرْنا بصفٍّ من أشجار الياسمين، في دمشق، سمعت شجيرةً تتأفّف من غبار الشّارع، وتقول شاكيةً:

لِلصّيف عندنا غبارٌ سَخيٌّ، لا شيءَ أكثر سخاءً منه، إلاّ الرّيحُ التي تَحمله.

ثمّ أَرْدَفَتْ هامسةً: مع ذلك، ليس هناكَ ما يَمنعُ العطرَ مِن أن يكونَ أجملَ عتبةٍ للفضاء.

ح - شجرة الزيتون

«في اللاّذقيّة ضَجّةٌ» - لكن بين شهور الصَّيف: هكذا قالت لي شجرة زيتونٍ تجلس وحيدةً في شارعٍ تكادُ قدماهُ

أن تَتبلّلا بماء البحر.

كانت الشّجرةُ غبراء، متعبةً لا تقدرُ أن تُصغيَ حتّى إلى الهواء. وقالت: انظرْ إلى هذه الستائر التي يضعها الصّيف على نوافذ البحر. إنّها لا تَليقُ بالفضاء.

وقالت: يتلعثم شهرُ حزيران عندما يتحدثُ عن شهر تموز، وينطلق لسانُه عندما يتحدّث عن أيلول. أمَا شهر آب فيرفض أن يُقال عنه إنّه جارٌ لأيلول.

هل أُجازِفُ، إذاً، إن قلت: لِلصّيف عندنا جَسَدٌ لا يُحبّه حتّى البحر؟

د - شجرة السنديان

قالت سنديانةٌ: نزلَ الجَبلُ لكي يزورَ البحر، وقلت لخيالي أن يُرافقه. وَصَل. وَقَفَ عند العتبة. وقفَ طويلاً، ولم يعرف كيف يقرع الباب. رجع، دون أن يغسلَ حتّى قدميه من غبار الطّريق.

وقالت السنديانة: أعرفُ أنّ أَسْلافاً غامضين يأتون من البحر لزيارة الجبل. يأتونَ، ترافقهم عرائسُ تَسْمَع أصواتَها ولا تراها.

في كلّ زيارةٍ، كان يتدلّى من السّماء، أُسْطرْلابٌ يَرصدُ الطّريق.

هـ - شجرة الحَوْر

أَطلّت شَجَرةُ الحَوْر مِن شُرْفتها العالية، وأخذت تتأمَّلُ شاطئ اللاّذقية. قالت:

أَرَى قافلة أمواج أَرْهقَها السّفَرُ تأوي إلى الرّاحة.

أرى الشّمسَ تنْحني وتُنَقّط وَجْهَها بالفقاعات.

و - شجرة التين

قالت شجرة تينٍ في مَعرّة النّعمان، البلدة التي تنتمي إلى أبي العلاء المعرّي:

كان المعرّي يَعيش بعيداً عن البحر. كان، مع ذلك، يَراهُ ويَسمعُ فيه ضَجّةَ المستقبل.

وكان يصفُ الصيفَ قائلاً:

لا يتوقّفُ الصّيفُ عن العمل في حقوله، نهاراً وليلاً. مأخوذٌ بهاجسٍ واحد: أن يحفرَ ينابيعَ الصّمت.

وكان يقول عنه:

ينامُ الصّيفُ تحت أغطيةٍ وَعَدتْ بها ونَسَجتْها يَدُ الرّبيع. وعندما يطوي دفاترَ أفراحه، ويُودِعُها في خزائنِ الشّمس، يكونُ الخريف قد بدأ يَسْتَرجعُ دفاترَ أحزانهِ، واحداً واحداً، من خزائنِ الغيوم.

ومع أنّ الصّيفَ حافلٌ بالظمأ، فإنّ السّماءَ لا تعترف

به، وفي الفصول الأخرى تلبس الغَيمَ، تمويهاً.

وقالت شجرة التين:

كنت أَسمعُ المعرّي يُخاطِبُ الصّيفَ بنبرة الواثق: تذكّرْ، أيّها الصّيف، أنّ أجملَ تمثالٍ للماء هو ذلك الذي يَنحته المطر، وأجملَ صورةٍ للأرض هي تلك التي يرسمُها الماء.

وكنتُ أسمعهُ يقول، كأنّهُ يُغني:

ثَدْياكِ، يا لغةَ الصّيْفِ، كريمانِ جَيّاشان،

لكن، لا تحتاج شفتايَ إلى فَيْضِهما: حَتّى في الصّيف،

لا أسكنُ إلاّ في شتائي.

ز - شجرة العنب

لا تَنْتهي الدّاليةُ من تعليم أوراقها عناقَ الهواء، ومِن تعليم عناقيدها أُخوّةَ الشّمس. وفي الصّيف، لا تكادُ أن تقتربَ منها، حتى تخرجَ لاستقبالك غاباتٌ من الجرار طافِحةٌ بدمٍ كريمٍ له لونُ دمكَ، وهو أكرمُ الدّماءِ التي تَسيلُ في جسد النّباتات.

ح - شجرة العَرْعر

عَبثاً تقنعُ شجرةُ العَرْعَر بِفقْهِ الغيم. لهذا تُؤْثِرُ الصَّيْفَ.

وَتَتَلْمَذُ على فِقْه الصَّحْو.

في هذه اللّحظة من هذا الصّيفِ في حضن ذلك الجبل، أراها منفوشةَ الشّعر، نِصْفَ مجنونة، مفتوحة الذّراعين، احتفاءً بِنَوْلٍ جميلٍ من النّحل يتربّعُ بين نَهْديها.

ط - شجرة الإزدرخت

تغنّي الطّيورُ في شجرة الإزردخت التي تُظلّل عتبةَ بيتنا. تغنّي - لا تقول إلاّ نفسَها. لكن، لماذا يكون غِناؤُها أكثرَ طيباً - قُبيل الفَجْر؟

«رُبّما لأنّ حناجرها آنذاكَ توحّد بين النّهار واللّيل»:

أَجابَتْ شجرة الإزدرخت، كما خُيّلَ لأذنيّ.

ي - شجرة الزّيزفون

- ماذا تفضّل، أيّها الصّيف:

شيئاً له معنى، ولا ثمرة لَهُ،

أَمْ شيئاً له ثمرة، وليس له معنى؟

سؤالٌ لا تتوقّف شجرة الزّيزفون عن طَرْحهِ، طولّ الصّيف. والأرجحُ أنّها لا تعرفُ غيره.

يؤكّد ذلك فَلاّحون يتفيّأونها دائماً، ويتنشّقون زَهْرَها الذي لا يُثْمر. فَلاّحون ليس في رؤوسهم غير الحقولِ، مزروعةً بأعشاب الذّكرى.

صداقة العواصف

I . طائر الصّيف

إنّه الدُّوريّ، طائرُ الصّيف. أراه الآن أمامي. كلّما رأيته أَفرحُ وأحزنُ في آنٍ: يذكّرني بأيّام طفولَتي الأولى. يذّكرني كذلك بقلّةِ الحيلة عندي، وسوء تدبيري، وثقتي شِبْهِ العمياء بالآخرين.

هذا الطائر هو بين أكثر الطّيور كونّيةً. تراه في جميع البلدان من أَقصى الشّرق إلى أقصى الغرب. غير أنّه في قريتنا بين أكثرها نُفوراً، حتّى في أُلْفتهِ، وبين أكثرها وحشةً حتّى في أُنسْهِ.

حتّى حين يَخْتلطِ بالدّجاج المسكين المسالم لينقرَ نصيبَه من الحَبّ المتناثِر ، يبدو يقِظاَ قلِقاً ومذعوراً حَذِراً، سريعَ الحركة، لا يكادُ يحطّ حتى يطير. كأنّه ليس طائراً، بل مزيجٌ من الظلّ والضّوء والرّيح.

ولا يَبْني أعشاشَهُ إلاّ في الثقوب، بعيداً عن الأعين، والخطواتِ، والأيدي: ثُقوب الجدران العالية، وتلك التي حَفرتْها يَدُ الطّبيعة في أعناق الشّجَر.

وأغلب الظنّ أنّه لا ينام إلاّ بعين واحدة، كمثل ذلك الذئب الذي وصفه شاعرنا القديم، رامزاً به لنفسه. فإنّ عينه الثانية تظلّ سَهْرانةً، تتحسَّب وتراقب.

ومع أنّني كنت أُمْضي وقتاً طويلاً أراقبه، وأتتّبع حركاته وأحواله، مُتعاطِفاً وَمُسْتَمْتِعاً، فإنّني لم أتعلمّ منه شيئاً. وهذا مِمّا يُحيّرني - لا يُحيّرني وحسب، بل يؤسفني، أحياناً. فأنا أعتقد ببساطةٍ تامّة، أنني لو تعلمت منه، لكنت تجنبّتُ كثيراً من أخطائي - تلك التي جَرّت عليّ عواقبَ لم تكن سارّةً أبداً، خصوصاً في علاقاتي مع كثيرٍ ممن كنتُ أحسبهم أصدقاء.

مع ذلك، سأنام بعينيّ الإثنتين، وأقول لِثقتي بالآخرين:

ازْدادي رُسوخاً.

II. كرسيّ الصّيف

- أ -

سواءٌ كان كرسيُّ الصّيف رفيقَك على الشّرفة، أو أمام العتبة، أو تحت شجرة. فهو يختصرُ لك المحيطَ حولَك، وربّما الكونَ، في أربع قوائم. يكفي أن تكون قربه وردة حمراء في إناء صغيرٍ، لكيْ يُوحيَ لك بما تُحِبّ.

- ب -

لكرسيّ الصّيف صَمْتٌ يشفي كثيراً من أمراضِ الكلام.

- ج -

لكرسيّ الصّيف جسمٌ مُشَقَّقٌ بجراح الذّكرى. غير أنّ الشّقوقَ لاَ تبينُ. كذلك الجراحُ. الأولى أكثرُ خفاءً.

- د -

إلى يمينه مرآةٌ لا تكفّ عن سؤاله: ألا تُريد أن تكونَ اثنين؟

- هـ -

انظروا إليه: لن تروا فيه إلاّ أشخاصاً يعيشون في سَفَرٍ دائم.

- و -

يعرف كرسيّ الصّيف أنّ الحزن والفَرح كمثل الوجه والقَفا:

لا اتّحادَ، لا انفصال.

- ز -

يحلمُ كرسيّ الصّيف - لكن، قلِقاً متسائلاً: مَن يَدلّني على حُلمٍ واحدٍ استطاعَ أن يزورَ أَقربَ نقطةٍ إليه - حاجبَ العين؟

III. مِرآة الصّيف

- أ -

مَلَّتْ مِرآةُ الصّيف: يُرادُ لها دائماً أن تعكس ظاهر الوَجْه. وهي تُريد أن تعكسَ مَا وراءه.

- ب -

مِن أين يَجيء، أيّتها المرآة، الخيطُ الذي يَصل بين وَجْهينا؟
أُوه - تكاد أن تقطعه ريحٌ لا سُلطانَ لنا عليها.

- ج -

قولي، أيّتها المرآة-
مِن أين لكِ هذا الظّلامُ
الذي لا يعكس غيرَ النُّور؟

IV. دفتر الصّيف

- أ -

تَواضَعْ، أيّها الدّفتر الصّديق،
كنتَ خشباً، قبل أن تكونَ لغةً أو كتابةً.
أَصْغِ، -
في أعلى غُصُنٍ مِن آخر شجرةٍ جئتَ مِنها،
صوتٌ يُرتّل نشيداً
لن تقدرَ حنجرتك أن تَتّسع له.

- ب -

مِن أين لكَ هذه القَسْوة:
تُسَمِّر في صدركَ رئةَ العُصور.

- ج -

ما السّر الذي يجعل الفرحَ نفسه يبكي،
واضِعاً رأسَهُ على صدركَ؟

- د -

من المحبرة التي تَسقيكَ،
تنزل نطفٌ، لا تلبث أن تَصْعدَ،
كمثل شموسٍ صغيرةٍ، إلى سماء الحِبْر.

- هـ -

هل لكلّ كلمةٍ ينقلها إليك الحبرُ،
فَمٌ وأذنان وعينانِ، كما يُشاع؟
هل صحيحٌ أنّ فيكَ غابةً، ينمو فيها شَجَرٌ
لا يُصادِقُ إلاّ العواصف؟

- و -

فَرِحْتُ بتلك القصيدة التي فَرّت من بين يديَّ،
واختبأَتْ فيك،
وفرحتُ لأجلها،
لأنّ الفضاءَ قلّما فَكّ لَغيرها سَراويلَه.

- ز -

هذا الحَقْلُ الذي تتفكّك أعضاؤه،
كتفانِ تتحوّلان إلى حصىً،
عينان ينبتُ فيهما الشّوك،
شَفتانِ يُشَقّقهما العطَش،
وصدرٌ غبارٌ.
هذا الحقل كلامٌ
لم يعد يعرف أن يَقرأه حتى المحراث.
وها هو الغَيم الذي يُسمّى الحاضر، يعبر فوقه كبرْقٍ خُلّب.

كيف، إذاً، قدرتَ، أيّها الدّفتر
أَنْ تحوّل هذا الحقلَ إلى أَشْرعةٍ تَتَهادى في أحشائك؟

- ح -

رجلٌ يتزنّر بالشّاطئ،
امرأةٌ تَضعُ في عنقها عقداً من أشّعة الشّمس،
فيما كانت ريشتُها ترسم وجهَ الغروب،
وفيما كان الشّاطئ يقومُ ويقعدُ مُصْغياً إلى أراغن الزّبَد.
هذا هو آخر الصّيف،
حيث يلتقي هباء الشّمس وزَبدُ البحر في أحضان الرَّمل،
تحت هذه الخيمة: لا أبديّ إلاّ الزّائل.
ولا تقدر الفصول أن تقول: لا،
والشّمس نفسها ستقول: نعم.

قل لي، أيّها الدّفتر،
هل ستقدر حَقاً أن تَتّسعَ لهذه المُحيطات؟

حقول الدّاخل

- أ -

تُضلّلني الشّمسُ ذاتُها - أحياناً. مِنْ أمَدٍ توقّعت ذلك، وأفهمه. ألم أُخْبِرْكَ بهذا مِراراً؟

- ب -

لم يَعُدْ للوطنِ، هذا الشيخ المعذّب، مكانٌ يقيم فيه إلاّ المَنْفى. كنتَ تُنْكرُ عليّ هذا القول، وترفضه. يسر نّي كثيراً أنّك بدأت الآن تغيّر رأيكَ.

- ج -

مَطَرٌ. جميلٌ، غريب. كأنّه سِرْبُ طيورٍ هاربةٍ من أقفاصِ الغيم.

هَلْ صَدَفَ مرَةً أن رأيتَ المطرَ في أواخرِ الصّيف؟

- د -

- تسألينني ماذا أكتب؟ كلاّ، لا أكتب عن الأشياء وحولَها، وإنما أكتبها - أكتب ماءَها المتجمّد، ثلجَها - خصوصاً رملَها الذي تنقله إليَّ، إلى غرفتي، كلّ يوم، أَعاصيرُ الحِبْر.

- هـ -

النّوم -

لا يريد جسمي أن يذهب الآن إلى الفراش. أكتب، أقرأ.

لا يريد رأسي أن يَستلقي الآن على وسادة. مع أَنّني، حين أحرّكه، أشعر أَنّه شِبْه نائم.

سأحاول أن أكتب صفحةً تنتظمُ خطوطها كما تنتظمُ الخطوطُ في راحة يديَ اليُسْرى. اليُسرى، لا اليُمنى. هل ستُدخلني هذه الصّفحة في حالٍ أخرى؟

حاليَ الآن تقول لي: أنتَ نائمٌ بلا نوم. وماذا يعني، إذاً، أَنْ يذهبَ جسمي على الفراش، إلاّ إذا كان ذلك من أجل أن تكتملَ هويّة الجسم، وصورةُ النّوم؟

هل يقدر الجسم آنذاكَ أن يقول نفسه، حَقاً؟

أسألكِ، استطراداً: هل قولُ الجَسَدِ هو جَسَدُ القول؟

- و -

أتخيّلكِ، أفكّر فيك-

لماذا لا أَقدر أن أراكِ، أيّها الخطّ المستقيم، إلاّ في شَكْلِ مُثَلَث؟

- ز -

استيقظتُ باكراً هذا اليوم. كنتُ، على غير عادتي، مضطرباً. مرارةٌ غامضة تحت شفتيّ. تأمّلت لوحةً. رأيتُ فيها شيئاً لم أَرهُ من قَبل. سِرتُ في غرفتي قليلاً. نظرتُ من النّافذة إلى الغيم. ثمّ حاولت أن أنسى حالتي هذه. أخذت، كعادتي بعد تناول القهوة، أقرأ فيما أصغي إلى دَقّات الساعة التي تتدّلى من عنق النّهار.

- ح -

كم مرّةً، قلت لك: أنا كمثل الفلاّح، أعني كمثل الطّبيعة، - ليس من طبيعتي أن أنتظرَ ما لا يأتي.

- ط -

أخالفكَ الرّأي، يا صديقي، فالأنبياءُ لا يتوقّفون عن الكلام. وَلَئن كانت شفاههم صامتةً الآن، فلِأنّ أقدامهم هي التي تتكلّم.

- ي -

تحت هذه المظلّة الزّرقاء، في هذه الزّرقة التي توحّد بين جسد البحر وجسد السّماء، أكتبُ إليك هذه الرّسالة - السّؤال: هل الحبّ هو الذي يخلقُ الفصول؟

- ك -

... في الماء، بين يدي الموج. جسدي ملحٌ ونباتاتٌ لا يعرفها غير البحر. أُلامسهُ حيث تقدر أصابعي. أسأله: أين أنتَ في هذه اللّحظة؟

- في لباس الموج، وكالَموْج، في لا مكان.

- ل -

كم تمنّيتُ لو أنّنا معاً على هذا الشاطئ، - نقرأ لحظاتِنا ونكتبُها،

مرّةً، بِالسّهام التي تتساقَطُ من أَحْداقِ الشّمس.

مرّةً، بِغزلانِ الموج.

- م -

تلك هي تباشيرُ الخريف، -

رذاذٌ كأنّه هَباءُ الشّمس، ينزل على جسد البحر. يُخيَّلُ إليَّ أنّ حركة الموج تتحوّل إلى كلامٍ، وأنّيَ أدخل معه في حوارٍ صامت.

تركت الشاطئ، عائداً إلى البيت. في الطّريق رأيتُ إلى الأعشاب وقد اغتسلت من غبارها. فشُبِّهَ لي أنّ لكلّ نبتةٍ فماً ينطقُ، وأذنين تُصغيان. أنّ للأعشاب رؤوساً تتمايل نشوةً، كأنّها شربت رحيقاً لا يعرف أسرارَهُ إلاّ هي، وإلاّ

المطر. أهو عيدٌ تتلاقى فيه الأضداد: ما ينزل من السّماء وما يصعد من الأرض - حيث ترتعش العناصر، ويَخْتفي بعضها ببعض؟ وتقول: كأنّ المرئيَّ واللاّمرئيَّ في ثوبٍ واحدٍ، وفي سريرٍ واحد.

مرثيّة

جفَّ نهرُ قريتنا، وتمزّق سروالُه الذي كان ينسُجه من ورَق الصّفصاف والسَّرْو.

الأفق حوله نايٌ يعزف عليه الجفاف، والوقت سريرٌ مفروشٌ بالشّوك.

لا قمرٌ يغسلُ قدميه بمائه الطّيب. لا أجراسٌ تقودُ قطيعَ أيّامه. لا ضبابٌ يسترسل على كتفيه.

بخيوطٍ من اللّعب، كان أطفال القرية يربطون الموتَ ويلقونه في أحضان النّهر. وعندما كان القمر يغوص في مائه كأنّه حَمَلٌ يختبئ، كانوا يصرخون: إنّها الذّئابُ تجوس المكان.

لا أقدر أن أحصيَ الأطيافَ والأساطير التي كانت تتوالَدُ بين ضِفّتيه، غير أنّني أُخبِئُها في جِرارٍ ليست إلاّ أَحْشائي.

فضاء

بعدُ، لم تنضج في باريس، عناقيد الغيم.

رواقٌ طويلٌ يُضاء ليلاً. جزءٌ من ساحةٍ ينهض فيها صَفّان من الشجر. شجرة من فصيلةٍ واحدةٍ تتكرّر سِتّ عشرة مرّة. بين الصّفين تسعة أعمدة بستةٍ وثلاثين مصباحاً كهربائيّاً. الرّواق مسقوف. أمشي فيه أحياناً، احتماءً من المطر، فيما أقوم برياضة المَشْي.

بدأ ورق الخريف ينسج أرض الرّواق بخيوطه الصُّفْرِ، الخمريّة. الهواء باردٌ قليلاً.

امرأة تحمل على ظهرها حقيبةً وتجرّ أخرى. تبدو شبه ضائعة تجلس وتدخّن. بضع دقائق. فجأةً ألتفت. لا أراها.

الفضاء مضخّةٌ هوائيةٌ ضخمة.

أمسكتُ بعمود كهرباء. ثمّة برودةٌ تتغلغلُ في خلاياه. يقف الضّوء تحت شجرةٍ، كأنّه يُصغي إلى وقع خطواتي.

كأنّه ينظر إليّ أكتب تحته، ليلاً. أتذكّر كيف كنت أقرأ دروسي، في أيّام طفولتي، تحت الضّوء في الشارع العامّ،

في طرطوس. كانت الغرفة التي أقيم فيها تضاء بمصباحٍ غير كهربائيّ.

صوت طائرة. صوت مكنسةٍ كهربائية.

لِأعذْ إلى البيت.

في المصعد امرأةٌ تمسك بيد طفلَها، وتمسك بيدها الثانية وردةً حمراء طويلة. امرأة من آسيا.

البيت.

وصلت نينارُ من لندن. دخلت إلى البيت كأنَّها خارجةٌ مِن مَسْرحيّةٍ شكسبيريّة. لا وقتَ لديها. مدعوّة إلى العشاء.

أُطِلّ من النّافذة:

يَدُ الخريف تمشّط رؤوسَ الشَّجر.

الزّائل؟ طيفٌ لا يكاد يَظهر حتى يغيب. سَطْحٌ هَشٌّ، «يتفكّك»، سريعاً.

لكن، ما أعمقَ هذا السَّطْح!

يضعنا، دائماً ، وجهاً لوجهٍ، مع الأَبديّ.

*

مترو «بالّيه رويال»:

أناسٌ كمثل الأجنحة،

وأناسٌ كمثل الحجارة.

*

الفضاء يُسرق هو كذلك،
وليس الموت، وحده، حدّاً للحياة.

*

مَن قالَ: الفقر يوّحد بين البشر؟
كلاّ، لسنا موّحدين حَتّى في الفقر. ولسنا سواءً حَتّى في الموت.

*

يتمدّد ليل باريسُ، هذا اللّيل، في سريرٍ يُجَعّده الغيم.

*

تَكادُ سَماءُ باريسَ أن تسيلَ بين أطرافي.
تَماسَكْ. أيّها الجَسدُ الواهِن.

(الخميس ٢١ أكتوبر، ٢٠٠٤)

هو

- ١ -

أرضهُ له
لكنّها لغيره.

- ٢ -

الحياة مع ذلك،
ولو بين خيوط سَجّادةٍ
من رؤوس البشر وسيوف السّلاطين.

- ٣ -

البريء كالشمس كالبحر كالشّجر
هو وحده الذي يقدر أن يفهمه.

- ٤ -

أوه! ما هذه الأرض التي ينتمي إليها؟ هيَ في كلّ خليّة من خلاياه، وليس بينهما غير الحرب. لا يَراها إلاّ بعيدةً، ولا يحيا - لا يقدرُ أن يحيا إلاّ بها ومعها، ومنها وإليها.

لا يكاد يُحقق نجاحاً حتى يتحوّل إلى قلقٍ على ما لم يُحققه بعد. هكذا لا يعرف أن يحتفي إلاّ بفشله.

فيه عطشٌ يَغورُ إلى أبعد من عروقه، يطوي جسدَهُ طيَّ الورق.

سرابٌ وراء خطواته، سرابٌ أمامها: مسيرةٌ يقودُها الواقع. وما أشقاه: يخرج منه كلامٌ وحشيٌّ لا يعرف كيف يجلسُ على مائدة اللّغة.

وكثيراً ما يقول، معزِّياً نفسه:

لا تصرخ الوردة،
غير أنّها تتنهَّد.

يكتبُ - لا يكتبُ إلاّ ما تهمسُ به خلايا جسده. ويعرف: لا يَرْويهم إلاّ دَمهُ. وهيهات، هَيْهات.

لن يكن لهم ذلكَ العلوّ. هَم الغاسقون، وهو الغَزْوُ. النَّيزك الذي يَقصمهم. صِنْوُ الطوفان.

- ٥ -

ليس للزّمن، في حبّه،
إلاّ صيغةٌ واحدة: المستقبل.

- ٦ -

تبدو حياته كأنّها موسيقى
تطلعُ من شَجرٍ
يعزف عليه الهواء.

- ٧ -

يَيْأَسُ آمِلاً -
كما لو أنّ الينابيع تحضن الأرض،
والضّوءَ سيّدٌ على الوقت.

- ٨ -

إنّه الجرح مفتوحاً كالأفق:
مَليءٌ بالغُبار
لكنه مليءٌ بِالشّمس.

(١٩٧٦)

الهواءُ هو نفسه الأنين
(1980 - 1982: بيروت)

I. تاريخ

كان القَتْل ثدياً لبيروت، والدَّمُ ثَدْيَها الآخر. بينهما، كنتُ أتعلَّم
كيف أرضعُ الوقت.
نَشيجُ خُلجانٍ من دَمٍ آخرِ غَيْرِ مَرْئيٍّ يَدبُّ في الشّوارع.
قالت النّارُ: سأُعلنُ الرّماد وَصِيّاً.
قال الرَّماد: لن أكتبَ وصيّتي
قالت الرّيح: أنا الشّاهدة.
إعْصارٌ تتطايَرُ فيه أَيدٍ مقطوعةٌ، ورؤوسٌ لم تعد تعرفُ أَعْناقها. كان الضَّوءُ يَصرخُ ويَسْتَنْجِدُ بالظلّ.

أجملُ المصابيح هي تلك التي نُشْعِلُها، لا لكي نرى النّور، بل لكي نَرى الظلّ.

II. حصار

الغبارُ يمسَحُ بِأجنحتهِ وجوهَ العابرين. ثقوبٌ في الأرض
يَتصاعَدُ منها بخارُ التّعب. المدينةُ انْشِطارٌ في فم
الوَحْي، والحزنُ يَتسلَّق خاصرةَ السّماء.
لِلْغَيْبِ الذي يَلبَسُ المدينةَ أجسامٌ تَمشي. لهذه الأجسام
أرجلٌ كأَرجُلِ الملائكة. لا أحدٌ يَسيرُ في الظلّ. لا
أحدٌ يَسيرُ في الشّمس. ولا أَجِدُ بينهما طَريقاً.
النّهار يَنْحني. الفضاء يجلس القُرْفصاء. رَضِيَ الشّارِعُ أن
يكونَ عُكّازاً لِلشّيخ بائع الجرائد.
هديرٌ يَقْتَحِمُ المدينةَ كاسراً قَصَبَ السّاعات. شَهيقٌ يَحملُ
زفيرَ التّاريخ. ما هذا الحَجرُ العَتيقُ الذي يقرأ الغَيْبَ
وتقرؤه النّار؟ ما هذه الشّفاه التي تَتعكّزُ على صَلواتِها؟
لَعِبُ أشلاءٍ وتباريحَ في وَقْتٍ كمثل نَرْدٍ أسود.
اسألوا، اسألوا القُدّاسَ الصّامت الذي يُغَيِّمُ فَوقَ الأنقاض.
الوقت يَسيرُ إلى جانبي في كابوسٍ يَرْتَجِلُ الدُّروب.

III. شارع

شَارِعٌ -

كلماتٌ، أشياءٌ تروح وتجيءُ في هيئة أنيابٍ وأظافر.

أين الحفرة التي تتسّع للدمع؟ الشّيء يغتال الشّيء والإنسان يصنع من عروقه حبالاً يتدلّى منها.

يَجُرُّ الصّاروخ الملك ذيوله فوق أجسادِ رعاياه الأطفال.

تحت الأنقاض يتعفّن جسد طفلةٍ اسمُها الحياة.

أسرابُ عقائدَ تتنزّه في حدائقَ مِن أشلاء البشر.

والكتب تتطايَرُ معزِّيةً أمّها الأبجدية.

شُكراً لغبارٍ يَختلط بدخان الحرائق لكيّ يلطّفه. شكراً للفاصلة بين القنبلة والقنبلة. شكراً للبلاط الذي لا يزال يتحمّل خطواتِنا. شكراً للحجر الذي يعلّم الصَّبر. الرّماد الأميرُ يجلس ويأخذ البيعة. أوصى الأفقُ ابنه الهواء ألاّ يخرج اليوم من بيته.

أليسَ لهذه السمّاء ثديٌ آخر؟

IV. البحر

خَلع البحر ثوبه الأزرق، ولبس كيساً من الرَّمل. نارٌ تحيط
بأطرافه، تطوي السّماء فوقه كمنديلٍ أحمر.

كان النّاس يتنقّلون أو يتكلّمون لا لشيءٍ إلاّ لكي يتأكّدوا
أنهم لا يزالون أحياء. كانت الحياة هي نفسها إكْسيرَ
الحياة.

و لا مكانَ للأنين. الهواء نفسه الأنينُ - في أجسامٍ سُفُنٍ،
في تنهدّاتٍ كمثل الأشرعة.

حزناً على الهواء المريض، كانت الأشجارُ ترفضُ أن
ترقص. وكان الفجر يقول للشّمس: لا أفهم كلامَكِ.

الكلمات كلّها تحوّلت إلى غابةٍ للِذّكرى. ذكرى كمثل
القصَبة: لا تكاد أن تتوكّأ عليها حتى تنكسر.

٧. مَسْرح

بيتٌ يسكنه العالَمُ ضيفاً أبديّاً. غالباً، يتعذّر التّمييز بين المضيفِ والضّيف. فجأةً، يبدو البيت جسداً لا يتحرّكُ إلاّ بالحِراب التي تنحره من كلّ جهة. (أهذه صورةٌ لبيروت؟)

ربّما يطول سقوط بيروت: ذلك ثَمنٌ للصّعود الذي تريدُ أنْ يكونَ بلا حدّ. هكذا تتشرّد، لا في الجهاتِ، بل في رَحِم الأشياء.

هكذا ينسجُ الشعر عينيه فجراً ليقظتها. وليس هو من يقولُها، بل هي التي تقولُه.

هي ما لم يُقَلْ: النصّ العصيّ، الغامِضُ، الخطِر.

لا يقدر أن يَكتبها إلاّ حِبْرُ الشّمس.

شوارعُ تنزفُ لَهباً. لهبٌ ينسجُ الأشرعةَ للإبحار مرّةً، ولِلغرق مِراراً. كأنّ الطّفولةَ تتدثّرُ برمادِ الشّيخوخة.

الأشلاء الأشلاء الأشلاء. أيّامٌ تَسقط كمثل السّتائرِ حُجباً على العَيْن. تسقط في خِرَقٍ من الطقوس والكهاناتِ، في أَنْفاقٍ من الوِسْوسة.

يُطوِّقُ جسدَ بيروتَ كلامٌ هو الكلامُ كلّه، إلاّ ما يُريد هو أَنْ

يَتلّفظَ به: لا، وأخواتُها في الولادة أو في الرّضاع. في رغيفٍ. في تواطؤِ النّسغ والماءِ وراءَ القُشور تحت الأوراق اليابسة. في هدير أمواجٍ كأنّها خيولٌ تُحَمحم. في مَسْرح ليس بطلهُ فَرْداً. بطلُه اللاّوعيُ الوعيُ المخيّلة. جسَدٌ لا يَتَّسعُ لخطواتِه مَلْعبُ الوَقْت. جَسدٌ - طوفانٌ يزحزح شطآنَ التّاريخ.

VI. أنقاض

كان القمر يكسر مراياه فوق الأنقاض، فيما كانت بيروت
تصنع من الدّم والرّمادِ عكاكيزَ تتوكّأ عليها.
كانت السّماء تبدو سلاسلَ في قدميها! كانت النّجوم تبدو
كأنّها خناجرُ في خاصرتها.
يفرك النّهار عينيه ويتنهّد: لا يُصدّق ما يرى.
ابكي، بيروت، لكن اسمحي دمعكِ بمنديلِ الأفق.
كَتَبْتِ السّماءَ مرّةً لكنّكِ أخطأتِ، وها هي بخطيئتك نفسها،
تكتبكِ الآن.
أَثِقُ أَنّ لديكِ أبجديّة أُخرى.

(٢٠٠٥)

القصيدة

أَلنْ تغيّري هذا الثّوب الأسود الطويل الذي تلبسينه، حين
تجيئين إليّ، أيّتها القصيدة؟ ولماذا يطيب لك أن أضع
في كل كلمة منك جزءاً من اللّيل؟ ومن أين لك هذا
الدويّ الذي يشقّ الفضاء وأنت بضعة حروف تتناثر
على ورقة؟

لا الشيخوخة اليوم، بل الطفولة هي التي تملأ وجهك
بالتجاعيد.

انظري، الآن، كيف يضع النّهار رأسه على كتف الشّمس،
فيك، بعد أن نام مُنهكاً فيك بين فخذي اللّيل.

وكانت قد وصلت تلك العربة التي تنقل إليك رسائل كتبها
الغيب.

قولي للريح، أيّتها القصيدة لن يمنعك أحد من أن تدخلي
تحت ثيابي أنّى شئت ومتى شئت. لكن اسأليها: أيّتها
الرّيح، ما مهنتك، ولمن تعملين؟

الفرح والحزن قطرتا ندى على جبينك، والحياة بستان
تتنزّه فيه الفصول.

لم أشهد حرباً بين الضّوء والضّوء كمثل الحرب التي

اشتعلت بينك وبين سرّة تلك المرأة التي أحببتها في
سنوات الطفولة.
أتذكر، فيما كنت أواكب هذه الحرب، أنني قلت للزّمن: لو
كانت لك أذنان، لكنت أرتجل الكون، موسوساً: لا
أول إلاّ الآخر.

ألن تغيّري هذا الثّوب الأسود الطويل، أيّتها القصيدة؟

للشاعر

(آثَرْنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة).

١) شعر

قصائد أولى، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٧؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أوراق في الريح، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٥٨؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

أغاني مهيار الدمشقي، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦١؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل،
ط١ المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٥؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

المسرح والمرايا، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

وقت بين الرماد والورد، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.

هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.

مفرد بصيغة الجمع، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٧؛
طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.

كتاب القصائد الخمس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.
كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت ١٩٨٥.
شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
احتفاءً بالأشياء الغامضة الواضحة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤.
الكتاب I، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٥.
الكتاب II، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨.
الكتاب III، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.
فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت.
أَوَّلُ الجَسدِ آخِرُ البَحْر، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣
تَنبَّأْ، أيّها الأعمى، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣
تاريخ يتمزّق في جسد امرأة، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧
اهدأْ، هَامْلت، تَنشّقْ جُنونَ أوفيليا، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٨

٢) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛
ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٥؛
ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥؛
الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.

الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

٣) دراسات

مقدمة للشعر العربي، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛
ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.

زمن الشعر، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢؛
ط٦ مزيدة ومنقَّحة، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٥

الثابت والمتحوّل، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،
الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):
١ ـ الأصول،
٢ ـ تأصيل الأصول،
٣ ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،
٤ ـ صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري.
دار الساقي، ٢٠٠١.

فاتحة لنهايات القرن، الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠؛
الطبعة الثانية، دار النّهار، بيروت.

سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.

الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.

كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢.

النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

ها أنت أيها الوقت، (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.

المحيط الأسود، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٥.

٤) مختارات

مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٢.

ديوان الشعر العربي،

الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.

الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.

الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٨.

ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

مختارات من شعر السياب، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧.

مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من محمد رشيد رضا (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

(الكتب الستة الأخيرة، وُضعت بالتعاون مع خالدة سعيد).

٥) ترجمات

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.

السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.

مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.

البنفسج، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.

السفر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.

سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.

مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة، بالعربية والفرنسيّة، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس،

منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦؛

طبعة جديدة، دار المدى، دمشق.

منفى، وقصائد أخرى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.

مسرح راسين

فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٩.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦.

كتاب التحولات، أوفيد، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢.

– هكذا، علينا أن نمارس الكتابة بوصفها فعلاً «جُرْميّاً»: نَقْضاً، وهَدْماً. الكتابة التي تزلزل أسس الطغيان في مختلف أشكاله وتجلّياته، سواءٌ في القيم، أو التقاليد، أو الأعراف، أو العادات، أو المعتقدات – الحجب التي تلتصق على أجساد المدن العربية كمثل طبقات كثيفة من القشور. الكتابة التي تقتلعُ هذه القشور، لكي يظهر النسغُ الحيّ. الكتابة التي يبدو فيها العالم كأنه في حالة دائمة من التكوّن والتجدّد. بلا نهاية.



ISBN 978-1-85516-015-6



DAR
AL SAQI



دار الساقي